وزارة الثقافة



أقليم القاهرة الكبرى
وشمال الصعيد الثقافى
ثقافة الجيزة

المرأة
فى حياة طه حسين

دراسة نقدية

مديحة أبو زيد

الـهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى
وشمال الصعيد الثقافى

المرأة فى حياة طه حسين

مديحة أبو زيد

وزارة الثقافة



إقليم القاهرة الكبرى
وشمال الصعيد الثقافى

• المرأة فى حياة طه حسين
• مديحة أبو زيد
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى الثقافى
٢٠١٠ م
• تصميم الغلاف: د.خالد سرور
• المراجعة اللغوية: حمدى عبد الرازق
• رقم الإيداع:
• الترقيم الدولى:
• المراسلات:
إقليم القاهرة الكبرى الثقافى
شارع اليابان أمام قاعة سيد درويش
الهرم – جيزة
E-mail: culture@ccsnu.com
ت.ف: ٣٥٦٢٤١١٠
• الطباعة والتنفيذ:
دار الرفاعى للطباعة

مفتتح :

عندما يقترب كاتب أو باحث من شخصية لها كل هذا الجلال والبهاء والحكمة، وهى صفات يتمتع بها العميد ، فلا شك أن خوفا ووجلا يعتريانه، وهذا يؤدى إلى حذر شديد في تناول أى جانب من جوانب هذه الشخصية، فما الحال عندما اقترب من صورة المرأة فى رؤية طه حسين؟

والبديهى أن الظرف السوسيوتاريخى، الذي أحاط بطه حسين منذ ولادته، وخلال فترات تكوينه ونضجه، كان له أبعد الأثر فى تكوين شخصية طه حسين، سواء من الناحية النفسية أو من الناحية الفكرية. ولد طه حسين فى قرية " الكيلو" مركز مغاغة فى مديرية المنيا، فى أسرة يبدو من كتابته أنها كانت من أواسط القوم الذين كان فى مقدورهم أن يكون لديهم خادم على الأقل، كذلك كان فى مقدور هذه الأسرة أن تبعث بولدها الأكبر إلى القاهرة للدراسة فى الأزهر.

وأظن أن حادثة فقد بصره قد حدثت عندما كان فى الثالثة أو الرابعة من عمره، ولم تحدد رواية الأيام عمره، لكن نصت على أنه كان صبيا، ويبدو الأمر أنها حدثت قبل ذهابه إلى الكتاب بفترة قصيرة، وأظن أن سن الالتحاق بالكتاب لحفظ القرآن لا يكون قبل السادسة، فى نفس الوقت الذى تجده معتاداً على عاهته، متعايشاً معها، كذلك خيالاته عن العالم فى كتابته، رغم دقتها المتناهية، حتى أن وصفه لأزهار شقائق النعمان،

التى تطل عليها نافذة حجرته فى باريس، كان أروع من أى وصف لمبصر، ولكن تجس أنها صور منقولة، أضافت إليها عبقريته روعة على روعتها الحقيقية، وما فى ذاكرته عن العالم هى ذكريات ضبابية.

فى معظم الأحيان تكون العاهة، خاصة إذا حدثت فى الطفولة، سبباً قوياً فى إعاقة الانسان عن التقدم وتنمية ملكاته، لكن هناك أفراداً فى التاريخ كانت الاعاقة سببا فى توهج عبقريتهم، لا سبباً فى انطفائها، كالجاحظ، وهيلين كيلر وطه حسين.

لم يكن طه حسين طفلا عادياً كباقى أقرانه، وإلا ما زاد عن أن يكون، على أحسن التوقعات، قارئاً للقرآن، أو مدرساً فى إحدى المدارس الازهرية.

لقد كان طه حسين، طفلا يتفجر ذكاء فى هزله وجده، فنرى فيما سيأتى، أنه كان مناورا جيداً، وله حنكه فى مجابهة حقائق الحياة والالتفات إليها، وهذا يبدو واضحا فى تصرفاته فى الكُتّاب، مع العريف، وعندما صار مندوبا للعريف، ويبدو أنه حتى فى طفولته، اقتدى بسلوك أبى العلاء المعرى شيخا، وقبل أن يعرف عنه شيئا، لم يكن الصبى ولا الفتى طلق المحيا خفيف الروح، كان دائماً ساهم النفس، مهموم الفؤاد، ولكن همومه كانت هموم فكر أكثر منها هموم معاناة، وعرك الأفكار التى تأتيه من خارجه، حتى يميز الثمين منها من الغث.

ها هو الفتى، يدبر له والده والأسرة حاجياته التى يسافر بها إلى القاهرة، للالتحاق بالأزهر ولكنه لم يكن كغيره من الطلاب، صفحة بيضاء، يخط عليها الشيوخ ما وقر فى نفوسهم من أفكار عن الدين والدنيا، كثير منها يعمى القرائح ولا يفتحها، لكن المعمم الصغير؛ الذى درب عقله على الجدل، لم يكن من السهل ترويضه حتى يصبح صورة للأصول، وجاء اختلافه مع شيوخه، والذى لم يرجع فيه عن فكره مهما كان الحال.

رجع طه حسين إلى أسرته فى إجازة الصيف ليصدم كل من حوله بفكره التقدمى، فى مسائل الدين، ورغم اشتباكات نفسيته مع والده، إلا أنه كان فخوراً بنفسه، وأنه أصبح يجادل كبار الشيوخ فى البلدة، لم يزجره ولم يعنفه، ولكن غض البصر عما كان يعتبر اجتراءً على هؤلاء المشايخ. ومن استرجاع طه حسين لهذه الفترة، يبدو أن الأب أيضا كان تقدميا، فأورث الابن هذه الروح التقدمية، دون أن يقصد ذلك، كان طه حسين تقدمى الفكر والنزعة إلى آخر المدى. ولعل أهم مواقفه التقدمية، آراؤه فى تحرير المرأة، فلم يقل أثره فى كشف التعسف عنها عن معاصره سلامة موسى، وأظن أن تقدمية طه حسين فى هذا المجال، كان لها آثار عملية وسريعة، ذلك عندما غزت الطالبات جامعة القاهرة، وأصبحن على شاكلة الدكتورة سهير القلماوى وغيرها.

لقد كان طه حسين تقدمياً، فاعلا ، وليس فقط مفكراً ومنظراً.

التنشئة الاجتماعية وتأثيرها :

أظن أن طه حسين ولد ومعه شئ خفى عن حاضرى ولادته، هذا الشئ، هو إرادة فولاذية، وكأنها وجدت معه حتى يقهر العمى وينير المبصرين.

حتى البكاء فى أشد حالات المعاناة، هو شحيح به، هل يمكن لطفل عنوة، كى يطرح أرضه ورأسه على فخذ أمه، لتفتح عينيه، ثم يقطر منها سائله، ولا يبكى؟ كان هكذا (طه حسين) طفلا، رغم إصابته بالعمى نتيجة تلك الممارسات الجاهلية، وهو الذى يكره الضعف فى كل صورة.

لقد لازمته هذه الإرادة الفولاذية فى مختلف مراحل حياته، لم ينثن ولم يتراجع عن موقف طوال حياته.

بهذه الإرادة، أمكن لطه حسين أن يكون ما أراده هو لنفسه من سموّ ورفعة، وليس ما أراده الآخرون له من مكانة متواضعة.

ثم كان الفتى طه حسين، الواثق من نفسه، وهذه الثقة، ليست من فراغ، ولكنها مدعمة بقراءات عميقة لأمهات الكتب، أولها دراسته وحفظه وتجويده للقرآن الكريم، ألفية ابن مالك، مجموع المتون.

هذه الثقة جعلته قادراً على مواجهة ما كان يعتقد بخطئه، ودون مواربة أو التفاف، فها هو يتصدى للشيخ، عندما كان يسبغ المجد على حفظة القرآن، وحملة كتاب الله، فلا يتحرج أن يرد عليه قائلا (هذا كلام فارغ)، وعلينا أن نتصور أزهرياً يكون هذا رأيه، منذ أكثر من مائة عام، ولديه الشجاعة لإعلانه فى قرية صغيرة.

وها هو يكرر تمرده، وهذه المرة فى وجه أبيه، عندما كان يسمع أباه يقرأ فى كتاب دلائل الخيرات، بعد أن يفرغ من صلاة الصبح، فيضحك هازا كتفيه قائلا، إن قراءة الدلائل عبث لا غناء فيه، ثم يشرح لأبيه، أن كثيرا مما يقرأه لا غناء فيه، فما ينبغى أن يتوسل الإنسان بالأنبياء، فهذه ممارسات وأدعية لا تتفق والإسلام.

ويتطور هذا السلوك حتى يصل إلى محنته مع كتابه (الشعر الجاهلى).

غضب الأب غضباً شديداً، وتألبت الأسرة عليه، فهدده أبوه بعدم إرساله إلى الأزهر مرة أخرى، كل هذا وضحكات الشماتة تحاصره من إخوته، لكن هذه القضية، على قسوتها لم تزد صاحبنا إلا عنادا وإصراراً على مهاجمة كل ما هو غير عقلانى.

هذا العناد والنقد، الذى كان فى بعض الأحيان، يغلفه الفتى بسخرية، جعله محط انتباه الأسرة، وبين الضحك

والتضييق، تحقق له ما يصبو إليه، أن يستبدل مكانته من مجرد شئ كالمتاع، يحمل ويوضع فى أى ركن فى المنزل، إلى نجم تنصت الأسرة عندما يتكلم، تكون نتيجة حديثه إما ضحكاً، وإما لعناً وزجراً.

لم يكتف الفتى بدائرة الأسرة، بل رنا إلى حلقة أوسع، ليحقق فيها ذاته، فلم تلبث أقواله أن أغرقت الأسرة كلها فى ضحك شديد، شرق له الصغار، بما كان فى أفواههم من طعام وشراب، وكان الشيخ نفسه أسرعهم إلى الضحك، وأشدهم إغراقاً فيه..؟

شجعه هذا النجاح بين الأسرة على محاولة مد نطاقه إلى القرية كلها، فلم يلبث شذوذه أن تجاوز الدار، إلى مجلس الشيخ قريباً منه، وإلى دكان الشيخ محمد عبدالواحد، وإلى المسجد حيث كان الشيخ محمد أبو أحمد، رئيس الفقهاء فى المدينة، يقرأ القرآن للصبية والشباب، ويصلى بالناس أثناء الأسبوع، ويفقههم فى دينهم أحياناً...؟ وسرعان ما ذاع فى القرية كلها، افتراؤه على الأولياء، ورفضه التوسل بهم، فكان بعض أهل القرية يقصدون إلى مجلس أبيه خصيصاً، ليسمعوا الصبى ويناقشوه فيما يقول، وغالباً ما تحترم المناقشة، ثم ينصرف القادمون مغضبين، يستغفرون الله من ضلال الصبى، وكان ذلك أكثر مما تمنى خاصة وهو يستشعر غبطة أبيه بأن .." يرى ابنه محاوراً، مخاصماً، ظاهراً على محاوريه ومخاصميه، وكان الأب

يتعصب لابنه تعصباً شديداً، يسمع ويحفظ ما كان الناس يتحدثون به، بل ويخترعونه أحياناً من أمر هذا الصبى الغريب، ثم يعود الأب مع الظهر أو عند حلول المساء، فيعيد ذلك كله على زوجته راضياً حيناً وساخطاً حيناً آخر.

وعلى أية حال، انتقم الصبى لنفسه، وخرج من عزلته، وشُغل الناس فى القرية والمدينة بالحديث عنه، والتفكير فيه، وتغير مكانه بين الأسرة، أى مكانه المعنوى، فلم يهمله والده ولم تعرض عنه أمه وإخوته، بل قامت بينهم وبينه صلة تفوق الرحمة والإشفاق.

وقد أعانت هذه الفترة الفتى على الخروج من بيئته تلك المغلقة، إلى الحياة العامة، وتعرف الفتى إلى كثيرين من الذين كانوا يلمون بمكتبه فى الجريدة من الشيوخ والشباب، واتصل برفاق له أحباء، عمل معهم فيما بعد، ولقى معهم أهوالا، عرف هيكل ومحمود عزمى، وكامل البندارى وأتراباً لهم كثيرين، وبالتالى عرف لونا من المعرفة، لم يكن يقدر أنه سيتاح له فى يوم من الأيام.

أيضا لقى السيدات فى بيئته تلك الريفية، ولكنه لم يلق منهن الكاتبة البارزة، التى تظهر فى مجالس الرجال وتحاورهم.

المرأة فى حياة طه حسين

الطفولة والصبا :

شكلت المرأة دوراً هاماً فى حياة طه حسين، منذ طفولته وحين صباه، ثم يافعاً شاباً إلى اكتمال الرجولة، ثم زوجاً وأستاذاً وأباً.

فأمه بحنوّها الغامر على وليدها الضرير، واستجابتها لمشاعر الطفولة البائسة الحزينة، كانت تلمس فيه شغاف القلب، وتحرك فيه خفقان الوجدان، ولولا هذا الحنان ما تحمل قسوة الأيام، وحرمانه من أغلى نعمة يهبها الله للبشر، وهى نعمة "البصر".

كان يشعر أن به نقصاً، واكتشاف هذا النقص عند الفتى قد صاحبه حزن صامت عميق، بعد إحساسه بالغيظ أولا، وقد صاحبه هذا الحزن الصامت، فى كل مراحل حياته وجعله يتقلب بين الإحساس بالوحدة أو الغربة، أو النبذ من الآخرين، أو الانزواء المفروض من الذات.

ففى باريس عندما ذهب لطلب العلم، وقد اشتد عوده واجتاز محناً كثيرة وذلل عقبات كانت كئودا.
لكن السيدة التى عاونته، كانت تصحبه، وكأنها فى صحبة تمثال لأحد مفكرى الإغريق، جبينه المقطب وغرقه فى لجّ الفكر.

كان طه حسين دائم التفكير والتدبر كأبى العلاء، كان يعرف متعة أن يكون هو وجسمه كيانا واحدا منسقاً، وأن يستطعم ويستروح ويتقبل حسيته العارمة، حتى وإن كان، أحيانا، يضطر إلى كبتها وزمها عن الجموح، هذا شأنه دائماً، توّتر متصل بين قطبين متنافرين متجاذبين معاً، كان يعرف، مثلاً، كيف يتسلق ممراً جبلياً على وعورته، وها هى سوزان تتجه إليه بالخطاب بعد موته، فى كتابها الجميل الذى يهز القلب هذا ..

كنا جالسين على مقعد حجرى وحيدين تماماً، وقضمت قطعة من الشيكولاتة وقطعتين من البسكويت، كان النسيم رقيقاً، وأريج الغابة يفوح وسط السكون الجليل لعصر صيفى، كنت بالأيام السالفة، بنزهاتنا فى الغابات المحيطة بباريس، ويخيل إلىّ أنك كنت سعيداً حقاً فى تلك اللحظة، ولم أنس ذلك أبداً.

ومنذ سنوات الطفولة، كان الحب حتى فى أشكاله الطفولية، منجاة من الوحدة الضارية، وأول صوت التصق بذهن الفتى الصغير فى طفولة، علقت وانطبعت بعقله الباطن، كان من المرأة، حيث كانت أصوات النساء وهن يعدن إلى بيوتهن، وقد ملأن جرارهن من القناة تجلجل بالغناء: " الله يا ليل .. الله"، فيعرف الفتى أن الفجر قد بزغ..!

ولم تكن المرأة الحانية، ولا صوتها حين تغنى ... هو أول ما يذكره عنها، بل كانت هناك أيضاً المرأة المخيفة، "زوجة" سعيد الأعرابى" والذى كان يتحدث عن شره الناس، وحرصه على سفك الدماء.

كانت هذه المرأة، تضع فى أنفها حلقة كبيرة من الذهب، وتذهب إلى الدار، وتقبل الفتى من حين لحين، فيؤذيه خزامها ويخيفه، وكان يخاف دائماً أن يتعرض لشر هذه المرأة التى تدعى "كوابس"، ومن اسمها كان يخافها، ويخشاها كما يخشى الكابوس أو الخطر الداهم..!

ومن انطباعه عن المرأة، استنتج أن النساء عموما فى قرى مصر، لا يحببن الصمت، ولا يملن إليه.. فإذا خلت إحداهن إلى نفسها، ولم تجد من تتحدث إليه، تحدثت إلى نفسها ألوانا من الحديث.. فغنت إن كانت فرحة، وعددت إن كانت محزونة، وكل امرأة فى مصر، محزونة حين تريد.

وأحب شئ إلى نساء القرى، إذا خلوّن إلى أنفسهن أن يذكرن آلامهن، وموتاهن، فيعددن وكثيراً ما ينتهى العديد بالبكاء، وكان الفتى يسعد كثيراً إذا استمع إلى إخوته، وهن يتغنين، وإلى أمه وهى تعدد، لدرجة أن تعديد أمه كان يهزه هزًّا عنيفاً وكثيراً ما كان يبكيه.

وعلى هذا النحو، حفظ الصغير " طه" كثيراً من الأغانى، وكثيراً من التعديد. وكثيراً من قصص الجد والهزل، وشعر الهلاليين، والأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية، وحفظ إلى ذلك كله " القرآن"، ومن عالم الطفولة أيضاً تبرز صورة " نفيسة" الضريرة، صاحبة الحلوى، والقصص والأغنيات الجميلة، فحينما اطمأن "سيدنا" إلى أن صاحبنا قد أجاد حفظ القرآن، عهد به إلى العريف ليقرأ القرآن مرة كل أسبوع، حتى لاينساه بعد ذلك ..

ومع مرور الأيام، ضاق الفتى بأداء هذا الواجب اليومى، وتراضى العريف، وتم بينهما اتفاق غير معلن، علّى أن يرشوه الصبى ببعض الخبز أو الفطير، أو التمر بين الحين والآخر، ليخبر سيدنا أن حفظه جيد، ثم تطور الأمر، فأصبح العريف يعهد إلى الفتى باختيار زملائه الجدد، فلم يلبث أن سلك معهم مسلك العريف معه، وأخذ يسترد منهم بالرشوة ما كان يدفعه إلى العريف بل وأكثر.

وهنا تبرز "نفيسة" باعتبارها أقدر الصبيان على تخير الرشاوى، ثم كانت أكثر منهم حفظاً للقصص، وأقدرهم على الاختراع، وأحفظهم لألوان الغناء والتعديد معاً، كما كانت غريبة الأطوار، وفى عقلها شئ من الاضطراب، فكانت تلهى الفتى

معظم وقته، بحديثها وتعديدها وأقاصيصها وألوان رشوتها، وأهم من ذلك كله، أنها استطاعت أن تطبع ذكراها فى نفسه، باعتباها أول فتاة خارج أسرته، يكون له بها علاقة ما.

وتأتى بعد " نفسية"، زوجة موظف بالطرق الزراعية، وكان الزوج يعمل مفتشاً وهو فى الأربعين، ولم تكن زوجته قد جاوزت السادسة عشر، كان الفتى يتردد على بيته، ليجوّد عليه القرآن.

وكثر تردده، حتى أخذت الفتاة (الزوجة) تتحدث إليه، وتسأله عن نفسه وعن أمه وإخوته وداره، وكان الصبى يجيبها مستحياً ثم منبسطاً ثم مطمئناً، ونشأت بينه وبينها مودة ساذجة، وكانت حلوة فى نفس الصبى، لذيذة الوقع فى قلبه، بينما كانت ثقيلة على نفس الشيخة جدة الفتاة .

ظل الفتى يذهب إلى دار المفتش، قبل ميعاد عودته، ليظفر بساعة أو بعضها، يتحدث فيها إلى هذه الفتاة، ولم تكن أقل منه لهفة على هذا اللقاء، بل كانت تنتظره، حتى إذا أقبل استحال الحديث إلى لعب، كلعب الصبيان لا أكثر، وكان لعباً لذيذاً، وقص الصبى الحكاية على أمه، فضحكت ورنت للفتاة، أخت الصبى قائلة:

طفلة زوّجت من هذا الشيخ، لا تعرف أحداً ولا يعرفها أحد، فهى ضيقة الصدر، فى حاجة إلى اللهو والعبث.!

ومنذ ذلك اليوم، سعت الأم للتعرف على الفتاة، ودعتها إلى البيت، وسألتها أن تكثر التردد عليها، فقد رأت فى ذلك ترضية له ولنفسها، ولوناً من ألوان المواساة، والمشاركة الوجدانية البريئة لطفلها " طه "، لعل وعسى أن تضفى عليه بعضاً من روح الطفولة، وأملا من آمال الحياة...؟ ولتخفف من حسرتها وألمها لحرمانه، مما يتمتع به أخويه، وهو على ما بلى به، صابر، صامت. حزين، لا يشكو، ولا يبدو من حزنه سوى الصمت المرير.

كان الصبى غارقاً فى تأملاته الباطنية، لا يعنيه ما هو خارج هذا النطاق، إلى أن حدثت حادثة قلبت موازين فكره، عندما راودته روح التجريب، بينما الأسرة تتناول طعامها، فإذا هو يحاول أن يقبض على اللقمة بكلتا يديه، وهنا انفجر إخوته فى ضحك صاخب، أما أبوه فقال له فى صوت هادئ حزين: "ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بنى".

لم يعرف الفتى كيف قضى ليلته.

منذ هذه الحادثة، قيد حركاته بشئ من الرزانة والحياء، وتولدت فيه إرادة صارمة، فحرم على نفسه ألوانا من الطعام، لم

يتناولها إلا بعد أن تجاوز الخامسة والعشرين، فقد حرم على نفسه الحساء والأرز، وكل الألوان التى تؤكل بالملعقة، وقد أعانته هذه الحادثة على فهم ما يرويه الرواة عن أبى العلاء.

ومن هنا يتضح أن المرأة قد علقت بوجدان " طه"، شرياناً، يتصل .. بشريانه.. وتجاوباً حانياً، مشفقاً، ومقدراً، لطفل صغير محروم، لمحات، وشريط مسجل عليها، كل ما هز مشاعره من لمسات المرأة، فى طفولة بائسة محرومة وما كان الحب والحنان من المرأة إلا شفاء للقلوب والنفوس المحرومة المعذبة.

وقد استقرت فى أعماق الشيخ ذكريات حزينة مؤلمة عن لقاءاته بالفتيات، حيث لمست أنفاسهم شغاف قلبه، وانبعثت إرهاصات الحب الكامن فى حسه المرهف الرقيق، عندما تطوف به ذكرى هذه الأيام تدميه، وتحرقه مرارة الحرمان من البصر.

وهو يتحرق إلى التمتع برؤية من يحب، ولم يتركه قدره مع أحزان العمى، بل أراد أن يزيد أحزانه بضربة أودت به إلى قاع الحزن، إن صح التعبير، فقد ماتت أصغر شقيقاته، أول أيام عيد الأضحى والأسرة تستعد لقدومه، وذلك نتيجة لنفس الجهل الذى أودى ببصره، كانت الطفلة بسمة الأسرة، وحبها الذى يمشى على قدمين، كانت جميلة، لطيفة، ذات ذكاء حاد، وأقوال

تسبق عمرها، لذلك كان حزن طه عليها عميقاً، أثر فيه باقى حياته.

مى زيادة :

خلال سنوات الدراسة فى الأزهر، قاسى الشاب من الحرمان الطويل من المرأة، كان لبعض زملائه مغامرات وجولات وصولات، أما هو فقد كان الحرمان محتوماً عليه فى أحد المحبسين.

ولكن طاقة صغيرة من نور الأمل، قد فتحت له، عندما تعرف على لطفى السيد، وعن طريقه تعرف على "مى زيادة"، وهى أول فتاة مثقفة عرفها.

كانت " مى زيادة " تتحدث فى إحدى الحفلات العامة، وقد اضطرب لدى سماع صوتها المثقف الرقيق المعبر، والذى لا يبلغ السمع حتى ينفذ إلى القلب.

لم يفهم الفتى " طه" شيئاً من حديثها، ولم يحاول الفهم، ولكن شغله الصوت العذب الرائق عن معنى الكلمات.

فى اليوم التالى، يذكر طه حسين على أستحياء، اسم " مى" أمام لطفى السيد، فيعده بتقديمه إليها.

لكن لطفى السيد ينسى الأمر، ومنعه خجله من تذكيره به، ثم كان حصوله على درجة الدكتوراه، فقدمها إلى لطفى

السيد ليقرآ معاً، ولسبب لا نعرفه أعطى الرسالة لمن يعيد قراءتها، وكان اللقاء فى صالون " مى زيادة " .

كانت زيارته لمى هى الأولى من نوعها فى حياته، فهو فى صالون فتاة مثقفة، رائعة، تستقبل الزائرين وجُلّهم من الرجال، تحتفى بهم، مرة معاتبة، وأخرى معابثة، فى رشاقة وظرف، وحديث عذب يخلب الألباب ويستأثر بالقلوب.

بقى طه وأستاذه بعد انصراف باقى الكوكبة، أثنت مرة على رسالته فى أبى العلاء، وأغرقت فى الثناء، حتى أن الشاب انتابه حياء من الثناء، بعدها طلب الأستاذ من " مى" قراءة آخر مقال لها، وبعد تردد بدأت فى القراءة، وكان عنوان المقال،. "وكنت فى هذا المساء هلالا" انصرف الأستاذ ومعه الفتى وقد انطبع الصوت سحراً فى سمعه، وتعمق إحساسه " بمى " عندما كتبت له فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣٤م:

(يا أبا العلاء "مبروك حقك يرد إليك" كما يرد إلى الشباب المصرى حقه عندك " أود أن أذكرك، أنى تنبأت بهذا فى إيوان أبى الهول، بتاريخ ١٢يوليو، وكاهن أوزريس يشهد قلت يومئذ، إن الجامعة المصرية تستدعيك إليها خلال شهر نوفمبر، ولم يكن فى ذلك الحين من حديث، أو شبه حديث عن الأزمة التى ظهرت فى الشهرين الأخرين.

أتعد.. يا أبا العلاء وفولتير معاً، أتعد بتصديق إلهام المرأة بعد اليوم .

لدى... كلمة واحدة، أرجو أن تغتفر ما فيها من أنانية، إنى سعيدة..

"مى").

كانت "مى زيادة"، من الشخصيات النسائية التى مرت فى حياة "طه حسين"، وكانت صلته بها صلة أدبية بحتة، ولم يزرها "طه حسين" إلا مرات قليلة، ولكنها كانت تؤثره بالتقدير والإعجاب...!

وإليها يرجع الفضل فى تأييده للأديبات المصريات، اللائى ظهرن بعد " مى " وفى عصرها.

لقد كان "طه حسين" أثناء وجود "مى" وبعدها من أنصار التعليم النسائى، ومن باعثى الأمل فى تشجيع المرأة المصرية، لتأخذ دورها فى الثقافة والتعليم الجامعى، والإبداع الأدبى والتأليف.

كان منتدى مى ظاهرة هامة فى أدبنا العربى التحديث، حيث كان رواده من أهم رواد التجديد والحديث، ومن رواد الصالون ومن أصدقائها، منهم على سبيل المثال.. مصطفى الشهابى، أمين معلوف، يعقوب صروف، شبل شميل، سلامة

موسى، محمد حسين المصرفى، أحمد شوقى، خليل مطران، إبراهيم المازنى، زكى مبارك، عبد الرحمن شكرى.. وغيرهم.

وكان صالون "مى" من أنجح المنتديات فى ذلك الوقت، نظراً لإخلاصها وشبابها، وتألق نبوغها وسحر حديثها، حيث كانت تروى ظمأ روادها من السعادة الروحية، فأثرت فى أدباء عصرها من الناحيتين الإنسانية والفنية، فكانت تفيض فى كل حديث. وتبعث سعادة غامرة فى المجلس، فى لفتة أو لمحة أو ابتسامة، علماً بأن رواد صالونها لا يفوتهم الثلاثاء من كل أسبوع.

يقول الدكتور " طه حسين" حول صالون "مى الأدبى":

كان صالون مى ديمقراطياً، ومفتوحاً لا يرد عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز فى الحياة المصرية، وربما كانوا يدعون إليه، ربما كانوا يستدرجون إليه استدراجاً، فيلقون الناس ويتعرفون إلى أصحاب المنازل الممتازة، ويكون لهذا أثره فى تثقيفهم وتنمية عقولهم وترقيق أذواقهم، وأنا أذكر ... أنى اتصلت بصالون مى على هذا النحو، بعد أن نوقشت رسالتى فى " أبى العلاء "، وشهدت مى هذه المناقشة، كما شهدت فيما يظهر بعض الحفلات التى أقامها لى الزملاء حينئذ، وطلبت إلى

أستاذها وأستاذى "لطفى السيد"، أن يظهرنى فى صالونها، وكذلك عرفتها فى هذا الصالون.

كان الذين يختلفون إلى هذا الصالون، متفاوتين تفاوتاً شديداً، فكان منهم المصريون، وعلى تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية، من رجال ونساء يتحدثون فى كل شئ، وبلغات مختلفة بالعربية والفرنسية والانجليزية خاصة ..

وبعد وفاة " مى" ، منع لطفى السيد نشر الرسائل التى تلقتها "مى " من حوالى مائة كاتب ومفكر وشاعر وفيلسوف، وقال لمن أعدوا الرسائل للنشر:

" هذه مؤامرة على سر .... امرأة ..! " .

ولما سُئل الدكتور " طه حسين " فى ذلك قال :

" هذه ثروة فكرية، إنسانية لا ينبغى العبث بها وإن الامانة تقتضى نشر الرسائل، دون التصرف فيها بحذف أو تعديل". ثم شجع " طه حسين" أنطون الجميل وخليل مطران على نشرها كاملة، خدمة للحقيقة ... والتاريخ.!

وفى حفل تأبين "مى" ، وقف الدكتور " طه حسين " وعلى ملامح وجهه آثار حزن عميق وألم دفين، من مساء يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٤١ يستهل الكلام بشعر عربى رصين، ثم وقف ليستعرض ماضياً جميلا، حافلا بنفيس الصور وبديع

الأثر، ويصف كيف عرفها فى الجامعة القديمة عام ١٩١٣، حينما وقفت تعقب على كلمة، أرسلها الشاعر الثائر " جبران خليل جبران " من نيويورك، لتكريم الشاعر " خليل مطران " وقف يصفها فى إقبالها على العلم، وإلحاحها على طلب المعرفة والحكمة من مواضعها.

ولقد كان " طه حسين " كما قيل عنه، جميلا فى وفائه "لمى". نبيلا فى أخلاقه، منصفاً لها حين سجل حسنيين من حسناتها، وأشار بنوع خاص إلى أثرهما فى الحياة الأدبية.

الأولى :

منتداها الذى كان ملتقى المثقفين، ومجتمع المفكرين من أهل مصر وسوريا، ومن أهل الشرق والغرب، ومن رجال العلم والأدب.

الثانية :

تأثرها بالمحاضرة التى ألقاها أحمد لطفى السيد، فى نادى المدارس العليا، عن "أبى العلاء" وأخذها موضوع الرسالة، على أنه موضوع جدير بالتفكير.

وقد كان " طه حسين " يشفق على " مى " من عزلتها فى أواخر أيامها، ويريد أن ينقذها من تشاؤم أبى العلاء، ومن الإسراف فى التأثر برجال الدين، لكن كما قال طه حسين.

" إن أبى العلاء ورجال الدين، كانوا أقوى منى ومن غيرى أيضاً ".

ورغم تقدمية " طه حسين "، إلا أنه فى شبابه كان له رأى، فى زواج الشباب المسلم من الكتابيات، فقد نشر عدة مقالات عام ١٩١١ عن المرأة والزواج، شرح فيها رأيه فى زواج المسلم من الكتابية .

الزواج من الكتابيات :

قد يرى البعض أنها مفارقة غريبة، أن يتحول "طه حسين" عن رأيه، فيتزوج سوزان الكتابية، لكن أظن أن رأيه الأول مازال صحيحاً، فهو حذر من مواطن الزلل التى تكتنف هذا الزواج، لكن هذه المواطن لم تشبْ زواجه، فهو لم يتزوج سوزان لجمالها وبشرتها البيضاء، فهو لم يرها، كما أنه لم يتزوجها لأنها تمثل قشور المدينة، التى تدهس الشباب العربى فى خطواته الأولى فى الغرب، كما أن هذا الزواج لم ينحرف به عن الجد الصارم، الذى لزم به نفسه منذ بداياته، ولكنه اختارها لعقلها الراجح وثقافتها ونضجها، أى أن زواجه هذا خلا من كل المثالب التى عددها فى مقالته.

أما بالنسبة لتربية الأولاد، فأعتقد أن نسلها ينبئ عن الأخلاق الرفيعة، والحس الإسلامى الذى يتملكه، كما أن هذه القمم الثقافية، يبدو الواحد منهم كالإمام الذى يقول :

خذوا أقوالى ، ولا تبالوا بأفعالى.

كما كتب " طه حسين " عدة مقالات سنة ١٩١١ عن المرأة والزوج، ومن أطرف ما جاء فى هذه المقالات، متصلا بما نحن بصدده، رأيه فى الزواج من الكتابيات.

حيث يقول :

تغيرت أخلاقنا من حسن إلى قبيح، ومن جميل إلى ردئ، ذهبت مقوماتنا وضعفت أنفسنا، وأصبح من اليسير أن تندمج طباعنا فى طباع غيرنا من الاجانب، بل أصبح تقليدنا للفرنج أمراً محبباً إلى نفوسنا، فلا شك عندى أنه يجب علينا أن نحتاط، كل الاحتياطات فى استعمال هذا الكم، أى إباحة تزوج المسلم بالكتابية.

ولست أرى علىّ من بأس، إن قلت إنه الآن جرام ممقوت، فالكثير منا يتزوج الكتابيات من أهل أوربا رغبة فى جمالهن، وما يشاع من علمهن وأدبهن إلى غير ذلك، ولكن ماذا تكون النتيجة لهذا الزواج؟ لا شئ إلا أن يصبح الرجل، وبيته وأبناؤه أوربيين فى كل شئ، اللهم إلا أفراداً أفذاذا لا يعول عليهم فى الأحكام العامة لأنهم قليلون.

إذن أستطيع أن أحذر تزوج المسلم بالكتابية من الفرنج، أو على الأقل أن أضيق دائرته.

أسطورة الحب الجميل :

منذ وصل طه حسين إلى فرنسا، بدأت تتجاوب مشاعره مع جمال أصوات زميلاته وثقافتهن، تسرب إلى أنفه عطورهن وأنوثتهن، ولكن عجزه كان حائلا دون أن تكون له علاقات عاطفية معهن، مع رقة عواطفه، والرومانسية الحزينة التى لازمته منذ نشأته الأولى، يضاف إلى هذا ثقة زملائه فى شخصه ورجاحة عقله، فأصبح بئراً لأسرار العواطف، ومشيراً على زملائه بما يجب عليهم اتباعه، ولكن الجانب الخفى، أن تلك القصص ضاعفت من إحساسه بالوحدة والعجز، فكانت حياته حلوة بالحكايات، مرة بالواقع.

ولكن الحياة الحنون، أبت أن تترك هذا الفيلسوف الحزين، فى محبسيه إلى آخر عمره.. فتبتسم له فجأة، ففى يوم من أيام الربيع، جاءته ابتسامة، غيرت من حياته، وجعلته ينزع الوحدة والوحشة معا، أهدته ملاكا، حارسا، صوتها يصل أذنيه أنفاساً شجية، تلازمه كظله حتى النوم، وصوتها العذب الرقيق، يغلفه بغطاء من البر والحنان، هذا الملاك الذى نزع عن الفتى ما لفه به، وألقى فى نفسه تاريخ أبى العلاء، من ظلمة التشاؤم والقنوط.

قرأ الملاك عليه شيئاً من شعر "راسين" فأحس وكأنه خلق من جديد، وأصبح محباً للشعر، طامعاً فى المستقبل، حتى أنه كاد ينسى عجزه.

وهكذا اقترن مولد ذلك الحب فى قلبه بالثقافة والقراءة، وتذوق الجمال، ولنتصت الآن إلى صوت "طه حسين"، يحدثنا عن أسطورة حبه الجميل:

"أول ما وصلنا نزلنا فى "تريانوف بالاس أوتيل"، فى أول شارع فواجيدار، ومكثنا بضعة أيام، وبعد ذلك سكنتُ عند عائلة، تقطن الطابق السادس من البيت، نمرة (٣٢) شارع (يعروشروه) وفى تلك العائلة فتاة، كانت تدرس فى مدرسة المعلمات بسيفر، تساعدنى كسكرتيرة، والفضل لها فى أنه أمكننى أن أدرس اللاتينية، كما درستها مع شارل بران الصحفى المشهور، والاستاذ بمدرسة لوى لوكراند، وفى عامين درست اللاتينية، وبذلك أتممت ما يقضيه الشاب الفرنسى، فى ست سنوات بين ثانوية وعالية.

كانت حياتى بباريس مقسمة بين ثلاثة معاهد أو أربعة، (السوربون) والمعهد الثانى هو (الكوليج دى فرانس) والمعهد الثالث مكتبة القديس " جنيفاِن ".

كانت تصحبنى الآنسة، وكانت لى غرفة خصنى بها مدير المكتبة، والبيت أعده المعهد الرابع، فقد كنا نجتمع فى المساء، والآنسة وأختها وأمها وأنا، فتقرأ إحداهن رواية، أو رواية تمثيلية أو قصة أدبية.

فقد قرأنا الكثير من كتب أناتول فرانس وبورجيه وبريفو، وكنا نقرؤها بانتظام بعد العشاء كل ليلة، ولا يقطعها إلا مداهمة الطيارات، واضطرارنا إلى النزول فى (البدروم)، ولم تمض أشهر على إقامتى فى باريس مع هذه العائلة، حتى أحببت الآنسة التى كانت تعمل معى وخطبتها، وبعد سنتين، أعنى سنة ١٩١٧، طلبت من الجامعة الإذن بالزواج، فأذنت وتزوجنا فى أغسطس، ولكن بعد ما كنت قد أديت امتحان الليسانس، غير أن هذا الزواج، لم يتم بمثل هذه السهولة التى قد يوحى بها الحديث، فلقد بدأ الحب من طرف واحد.

بدأ قوياً عارماً كما علمنا، ولكنه صامت أخرس لا يجاوز صدر صاحبه، يملأ نفسه سعادة وأملا، ولكنه أمل حائر متردد، لا يخلو من إشفاق ويأس.

وبينما هو ينعم بهذا القدر من السعادة، قانع بألا يحاول الاستزاده لئلا يفقده، إذا بدعوة الجامعة للعودة إلى مصر، وإذا بحرمانه من الصوت الذى يمثل له جانبا هاما من أسباب شقائه

بإقامته فى القاهرة، إن لم يكن أهمها، وحين تقرر العودة إلى فرنسا، يكون الأمل فى لقاء صاحبة الصوت العذب، من أهم أسباب سعادته الجارفة، إن لم يكن أهمها، فلم يكد يستقر فى غرفته بذلك الفندق من فنادق الحى اللاتينى حتى أصلح من شأنه، وتهيأ لاستقبال شخص طالما نازعته نفسه إلى لقائه منذ شهور، وطالما أشفق من أن يلقاه أبداً.

ويطرق الباب طرقاً رقيقاً فى آخر الضحى. فإذا أذن بالدخول، دخل عليه شخصان، لم يكد يسمع صوت أحدهما حتى انجلى عنه حزنه، وانجاب عنه يأسه وانصرف عنه الهم، كأنه يستأنف حياة جديدة، لم يحيها من قبل، ولم لا؟ لقد بدأ منذ ذلك اليوم، حياة ليس بينها وبين حياته الأولى أية صلة، ولكن متى عرف الحب القناعة؟..

وحتى لو عرفها فترة تطول أو تقصر، فإنه لن يلبث أن يثور ويطلب المزيد، فها هو ذا صاحبنا قد نعم بقرب صاحبة الصوت العذب، واطمأن إلى لقائها كل يوم، فاعتبر ذلك حياة جديدة، لا تربطها بحياته السابقة صلة، ولكنه يلقاها بحكم السكن المشترك، وبحكم معاونتها له فى درسه، وبحكم إشفاقها على عاهته الأزلية، وفى أحسن الأحوال، بحكم تقديرها لذكائه ودأبه وإصراره، وربما بحكم صداقة أنماها الزمن وطول الألفة، ولكن

النار المضطربة فى صدره لا تصل إليها، والوجد الهائل الذى يملأ كيانه لا تحس به، فبينهما ألف حاجز وحاجز، رغم القرب والألفة والصداقة، ليس أهونها الدين واللغة والقومية والعاهة، ثم ذلك الإشفاق المضنى الذى يسيطر على أسلوب تعاملها معه، ولكن صاحبنا قد ألف منذ طفولته، قهر أشق الحواجز، أو على الاقل، محاولة اجتيازها وقهرها، عليه أن يحاول. وليس عليه أن يضمن النجاح، ولابد أنه ظل يتحين الفرص، ويتخير المناسبات. ليحاول اجتياز هذه الحواجز الشاهقة، بينه وبين صاحبة الصوت العذب، ومالكة القلب والعقل، فلما ألمت بها علة طارئة، إذا به يعقد كل حذره وتدبيره، ويستحضرها ويتحدث إليها.

"لا يدرى كيف التوى به الحديث" ولكنه سمع نفسه يلقى إليها فى صوت، أنكره هو قبل أن تتكره هى: إنــه يحبهــا ثــم سمعها تجيبه بأنها هى لا تحبه.

قال: وأى بأس بذلك؟

إنه لا يريد لحبه صدى ولا جواباً، وإنما يحبها وحسب، فلم تجبه، وغيرت مجرى الحديث، وانصرف عنها بعد ســاعة، وقد استقر فى نفسه أن حياته ستسلك، منذ ذلك اليــوم، طريقــاً جديداً.

إن طه حسين يدين للمرأة بالكثير من خـوالج نفسـه، وأكثر ما يدين له، هو حبه لشريكة حياته. وما أثارته فى نفسه، من كوامن الحب ولواعج الأشواق. حتى أن قلمه قد فاض بـه، فى مناجاة شاعرية رقيقة.. تذوب رقة ووجداً، وكتـب الـشعر الغنائى الذى سيتغنى فيه بحبيبته حين يقول، وكان هذا فى حداثة حياته:

أنـا لـولاك كنت مـلاك
أبكى .. أنوح بـالأشـواك
سـامحـنى
فى العشـاق أنا مشـتاق
صـدقـنى
أنـا لـولاك كنت مـلاك
غير مسموح أهوى سواك
سـامحـنى

وفى الشعر كتب يناجى :

يا راعى الله عهوداً للهوى... منذ سنيـن
حين كنا .. فى أمان مـن عيون الرقبـاء

إنما العذاب... للحب	وللأحبـــاب .. داء
آه ما أحلى الأمانـــى	ليت أيامى ... تعود !

لكن طه حسين، لم يعترف بهذا الشعر، لأنه كان يعتبره خواطر، خلجات نفس، لم تصقلها الأيام بعد، ويبدو لنا، أننا لم نعرف " طه حسين " على حقيقته، إلا عندما صدر كتاب "معك" لسوزان طه حسين، فقد أشهر هذا الكتاب شخصية جديدة، خفيت معالمها الإنسانية العميقة تماماً، عن دارسى ومعاصرى أدب "طه حسين" ، وهى الشخصية الإنسانية التى لم تبرز معالمها، إلا المرأة فى صلتها الوثيقة بـ" طه حسين"..!

لقد أظهرت الزوجة فى هذه الشخصية، الرجولة والحنان، الأمان، العمق، والإنسان فى كتابها "معك" حين تقول له :

" من لى بلحظة معك، إننى أفتقد هذا الحنان الهائل الذى لن يعوض..." هذا الحنان الذى تجده الفتاة فى رعاية أبيها، ثم ما أسعدها حين تجده فى أحضان الزوج...!

ثم المشاركة الفكرية، والوجدانية، والإنسانية حين يقول لها... لسنا معتادين على أن يتألم الواحد منا بمعزل عن الآخر...؟

يعرف تماماً ما هى الحياة، لقد تألم فى طفولته ألماً مريراً، قاسى كل ألوان الألم: ألم العزلة.. ألم وحدة النفس والروح،ألم الشعور بفقد جوهر الحياة، ألم المعاناة لفقد كل من أحب فى طفولته، يعرف الحياة، يعرفها تماماً وهو فى قمة السعادة، يشعر بالألم. حتى وهو بجوار المرأة التى هدهدت من نفسيته وسكن إلى جوارها، وهدأت بقربها مشاعره، يشعر بالألم ويعرف الحياة، يعرفها تماماً. يفهمها، تخترق بصيرته فيما وراء الحب، كان يدرك تماماً، ماذا وراء الأفق حين يقول لها ..

" إننا لا نحيا .. لنكون سعداء !.. إن السعادة هناك. هناك. فى السماء، عند الذى أعطانا الحب، والذى يرى كل ألم، والذى يعرف كل دعاء...! "ذراعى لن تمسك بذراعك أبداً، ويداى تبدوان بلا فائدة بشكل محزن، فأغرق فى اليأس، أريد عبر عينىّ المخضبتين بالدموع، حيث مدى الحب، وأمام الهاوية المظلمة، حيث يتأرجح كل شئ، أريد أن أرى تحت جفنيك، اللذين بقيا مغلقين ابتسامتك المتحفظة، ابتسامتك المبهمة الباسلة، أريد أن أرى من جديد، ابتسامتك الرائعة.

لقد استيقظت على ظلمة لا تطاق، وكان لابد أن أكتب لك، لكى تتبدد هذه الظلمة.

أترين. كيف أنك ضيائى، حاضرة كنت أم غائبة، كان علىَّ إذن، أن أتالم فى حبى أيضاً، فلنرحم أنفسنا، أنت. أنت معنى حياتى، إذن ما الذى يحدث لنا، اطونى فى جناحك، كما كنت تفعلين دوماً. بدونك أشعر أننى أعمى حقاً، أما وأنا معك فإننى أتوصل إلى الشعور بكل شئ، وإلى أن أمتزج بكل الأشياء التى تحيط بى.

فإذا كان "طه حسين" فى أزماته العتيقة يتحصن كما كان يفعل، وهو طفل فى داخل جسمه، وفى هوة هذه العزلة المخوفة، المروّعة عن الناس وعن الأشياء، إلى درجة أنه كان يصاب بإغماء محزن، كما تقول زوجته المحبة، كلما داهمته هذه النوبات، فإنه معها يمتزج بكل الأشياء، وهى الثنائية التى تراوحت بين قطبيها، حياة الرجل الرائعة، والإنسان العظيم.

الحب والأمل .. ايز يدورا :

خطابات طه حسين إلى سوزان، وقد أوردتها فى كتابها الجميل، المؤثر "معك" تشى بعمق هذا الحب، وتشير إلى أى مدى كان حاسماً، ومنقذاً، ومع ذلك فقد كان فى ردها على اعترافه الأول لها بحبه، رداً موجعاً وصارماً.

يقول لها : ذات يوم، اغفرى لى، لابد أن أقول لك ذلك فإنا أحبك، وصرخت، وقد أذهلتنى المفاجأة بفظاظة، ولكنى لا أحبك، فقال بحزن: آه.. إننى أعرف ذلك جيداً، وأعرف جيداً أنه كذلك، أمر مستحيل.

يقول طه حسين، لم أكن أعتقد على الإطلاق بقدرتى على مثل هذا الحب، وستبقى دوماً وحشية ولن يتمكن تقاسمها إلا بين كائنين فقط، أو أنها لن تقتسم على الإطلاق، هذه الزاوية الوحشية المتوحشة، وهى أفضل ماضينا فى ظل الحب المتأثر، الذى لا شك فيه، تظل نواة الوحدة صلبة.

"سوزان"... لنتابع المسيرة، أعطنى يدك، يستحيل علىّ القيام بشئ آخر غير التفكير بك، ولا أستطيع أن أمنع نفسى من البكاء، كلما دخلت الغرفة، فإنا أجدك فى كل مكان، دون أن أعثر عليك.

لقد استحالت الغرف معابد، وعليّ أن أزورها كل يوم، ولو أنك رأيتنى أخرج من غرفة لأدخل أخرى، ألمس الأشياء، وأنثر القبلات هنا وهناك، هل أعمل؟ وكيف أعمل بدون صوتك الذى يشجعنى وينصحنى، بدون حضورك الذى يقوينى ثم أنك تعلمين جيداً أننى كثيراً مالا أقول شيئاً، وإنما أتناول يدك وأضع رأسى على كتفك، ألا يمس القلب حقاً، أن نجده يشعل البخور ويطلب من الأقربين إليه، أن يستمروا فى إشعال مصباح، وبخور أمام طيف "ايزيدورا"، التى ألقت بنفسها فى النيل، على أثر فاجعة حب محبط، محزن، منذ أكثر من ألفى عام، كان أبوها قد كتب على قبرها يطلب القرابين والصلوات.

وها هو ذا "طه حسين" فى مقابر " تونا الجبل" . عند زيارته لصديقه الأثري العتيد "سامى جبرة"، يوقد لها البخور. ويشعل مصباحاً يطلب أن يستمر موقداً.

وتقول " سوزان " ..

ولا أدرى إن كان مصباح "أيزيدورا" لا يزال يشتعل أحياناً، نعم حتى لو انطفأ فإنه يظل مشتعلا فى أرواحنا، بقوة الرحمة والمحبة، التى يبعثها لنا " طه حسين"، لدى شخصيتان.. واحدة للعالم كله وأخرى لك، لى (لنا).

فى رامتان :

وهكذا كانت حياة "طه حسين" مع المرأة، الوفاء بها، ولها، وكانت المرأة مع "طه حسين" الوفاء به وله، وكما اعترف هو بفضل المرأة على حياته، اعترفت "هى" بفضله على حياتها، وسجلت له أنات قلبها، وخفقة روحها فى كتابها "معك"..

ذات مساء، من أمسيات الأيام الأولى لسكننا، فى "رامتان" "متحف طه حسين حالياً" كنا على الشرفة وحيدين تماماً أمام الحديقة الكبيرة الهادئة، وكنا نسمع من القاعة السيمفونية السادسة لتشايكوفسكى، لن نسمع أبدا، ولن يتحقق هذا مرة أخرى..

أصغى وأنظر إلى صورتك، فيتفجر قلبى، فتلك لحظات خُتمت إلى الأبد وتلاشت، وتلك وحدة مشاعر، لن أعرفها إطلاقاً مرة أخرى.

وأعيد التفكير فى النهاية المؤثرة لـــــ " دعاء الكروان "، وبقيمتها الصوفية، فى نظر النفوس الكبيرة:

أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذى أخذ يغمرنا، شراً من الظلمة التى خرجنا منها؟ ولا شك أننا لن نستطيع أن نهتدى به، وإلا إذا قاده صاحبه آنذاك.

توقفنا عن الحديث، لكن صوتك أيها الطائر الذى أحب، ينتزعنى من هذا الصمت العميق.!

ما أروع كلمات الحب حين تخرج من فم " طه حسين" وما أجلها من امرأة تستحق حب " طه حسين"، كل هذا الحب، وكل هذا الامتنان، وكل هذا العرفان بالجميل، إنها المرأة.. ليست فى قصة، أو فى رواية، ولكنها فى الحقيقة، الحقيقة الواقعية، التى عاش فيها وأحس بها لحب صادق، وامرأة صادقة، سارت معه على درب الحياة، وتحيا معه بعد رحيله بذكرياتهما معاً.

إنه درب لا يمكن أن تجتازه ثانياً، ولابد من وداعه وهى توجه نظرة أخيرة له، نظرة حب؟

" ابقى.. لا تذهبى، سواء خرجتُ أو لم أخرج أحملك فىّ.. أحبك.. ابقى.. أحبك.. أحبك لن أقول وداعاً، فإنا أحملك فىّ وسأملكك دوماً.. ابقى.. ابقى يا حبى.."

منذ أربعة وخمسين عاماً، كتبت لى ذلك..؟!

كانت حياته شيئاً ضئيلا نحيلا. رقيقاً، لا يكاد يبلغ نفسه، وكان ربما تساءل بين حين وحين عن هذا الشخص الذى كان يحسه، مفكراً مضطرباً فى دروب فى النشاط، ما هو؟ وما

عسى أن يكون؟ وكان ذلك ربما أذهله عن نفسه، وقتاً يقصر أو يطول، فإذا ثاب إليها أو ثابت إليه، أشفق من هذا الذهول، وظن بعقله الظنون.

وتساءل :

أيجد الناس من الذهول عن أنفسهم، مثل ما يجد، ويحسون من إنكار أنفسهم مثل ما يحس؟!

كانت حياته حيرة متصلة كلما خلا إلى نفسه، وكان لا يملك أمره إلا حين يتحدث إلى الناس، أو يسمع لهم، أو يختلف إلى الدروس، أو يصغى لما كان يقرأ عليه فأخذ كل هذا ينجاب عنه، وأخذ يدخل فى الحياة كأنه لم يعرفها من قبل، وكان ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه، وهو الذى أخرجه من عزلته... فألقى فى رفق وفى جهد متصل، أيضا ما كان مضروبا بينه وبين الحياة، والأحياء والأشياء من الحجب والأستار!

كان يحدثه عن الناس، فيلقى فى روعه أنه يراهم وينفذ إلى أعماقهم.

وكان يحدثه عن الطبيعة، فيشعره بها شعور من يعرفها عن قرب، كان يحدثه عن الشمس حين تملأ الأرض نورا، وعن الليل حين يملأ الأرض ظلمة، وعن مصابيح السماء حين ترسل

سهامها المضيئة إلى الأرض، وعن الجبال حين تتخذ من الجليد يتجانها الناصعة، وعن الشجر حين ينشر من حوله الظل والروح والجمال، عن الأنهار حين تجرى عنيفة، والجداول حين تسعى رشيقة، وعن غير ذلك من مظاهر الجمال والروعة، وعن مظاهر القبح والبشاعة، كان يحيط به من الناس، وفيما كان يحيط به من الأشياء، فكان يخيل إليه، أنه يكشف له عن حقائق كانت مستخفية عليه، ولم تكن غريبة بالقياس إليه، كأنه قد عرفها فى الزمان الأول البعيد، ثم نسيها دهراً طويلا، فهو يذكرها بعد أن طال عهده بها.

وكذلك أخذت تثوب إليه ثقته بنفسه وراحت إلى غيره، وأخذ ينجلى عنه الشعور بالغربة والضيق والوحدة والسأم من العزلة، وليس من شك فى أنه قد صدق كل الصدق، وأعرب عن ذات نفسه فى غير تكبر ولا علوّ، حين قال فى بعض ما كتب ..إن فتاته تلك، قد جعلت شقاءه سعادة، وضيقه سعة، وبؤسه نعيماً، وظلمته نوراً.

ولم ينفق الفتى وصاحبته صيفهما ذاك، فيما تعود الفتيان المحبون، أن ينفقوا فيه أيام حبهم الأولى، من تلك الحياة الهائمة الناعمة التى تخلص من المشقة، وتتخفف من الجهد، وتفرغ

لرضا النفوس، وغبطة القلوب والذهاب مع الخيال الهائم فى كل مذهب.

وإنما عرفا أن وقتهما أضيق من الفراغ للحب ونعيمه، فوقت الفتى فى فرنسا محدود، وعليه واجبات يجب أن تؤدى، وله مهمة يجب أن تتم، وهو مسئول عن هذا كله أمام جامعة فى مصر، لا تعرف السماح ولا المزاح مع الذين ترسلهم إلى أوربا، ليطلبوا العلم فيها، ولها الحق كل الحق فى ذلك، فهى إنما ترسلهم إلى أوربا ليتعلموا لا ليحبوا، وليجدوا فى طلب العلم، لا ليتعلقوا بأسباب الخيال.

وما أكثر ما ذكر الفتى أشهر الصيف تلك فى أقصى الجنوب الفرنسى، وما جاء بعدها من الشهور فى باريس، فرضى من صاحبته وعن نفسه رضى، لا تشوبه شائبة من سخط وإنكار.

وانظر إلى فتاة وفتى فى أول عهدهما بالخطبة، ينفقان أكثر النهار فى درس اللاتينية، حين يصبحان، وفى قراءة الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون، حين يرتفع الضحى، فإذا جاء وقت الغداء، ألما بالمائدة فأصابا شيئاً من الطعام، ثم أقبلا على تاريخ اليونان والرومان، فقرآ منه ما شاء الله أن يقرآ، فإذا كانت الساعة الخامسة، انصرفا عن تاريخ اليونان والرومان إلى

الأدب الفرنسى، فقرآ منه ما شاء الله أن يقرآ، كذلك لا ينصرفإن عن القراءة إلا ريثما يخرجان للتروّض، خارج القرية التى يعيشان فيها، ينفقان فى تروضهما ذاك ساعة أو أقل من ساعة، ثم يعودان إلى المائدة فيصيبان شيئاً من الطعام، ثم تجتمع الأسرة كلها إلى كتاب يقرؤه عليها، ذلك الصوت العذب، حتى إذا تقدم الليل شيئاً، تفرقت الجماعة، وآوى كل واحد منها إلى غرفته، وخلا صاحبنا إلى نفسه، يذكر ماضيه الغريب، وينعم بحاضره السعيد، ويفكر فى مستقبله المجهول، ينفق فى ذلك أكثر الليل، مؤرقاً لا يكره الأرق، ولا يدعو النوم، ولكن النوم يغلبه على أمره من آخر الليل.

فإذا أسفر له الصبح، استقبل يومه أخذاً فى الدرس كما فعل أمس.

وعلى هذا النحو، أنفق الأشهر الأولى لخطبته، ثم يعود مع الأسرة إلى باريس، فيستأنف فيها حياته الجامعية، مختلفاً إلى السوربون حين يصبح، وحين يمسى، خالياً إلى قارئيه بين ذلك، وإلى أستاذ الفرنسية يوما، وأستاذ اللاتينية يوماً آخر، مقدماً عسر المهمة التى تكلفها، وبعد ذلك الغاية التى يسعى إليها.

والغريب من أمر صاحبنا أنه لم يكن فى ذلك العام، أن يتهيأ لامتحان الليسانس وحده، وإنما كان فى الوقت نفسه يعد

رسالته للدكتوراه، وقد زاده إذن الجامعة له بالزواج جداً ونشاطاً، حتى كان العام الأول لخطبته غريباً حقاً، كلف فيه نفسه وخطيبته من الأمر ما أعسره وأشده مشقة، ولم ينس الفتى قط ولم تنسى صاحبته، أنهما كانا يخرجان بين حين وحين فى أيام الآحاد فى باريس يطلبان النزهة والتروض، فلم يخرجا قط وحدهما، وإنما صحبهما دائماً كتاب من هذه الكتب الثقال، التى ترهق القارئين فيها من أمرهم عسراً. والذين يعرفون كتب أوجست كونت، ويقدرون ما فيها من العسر الذى يتصل بمعانيها وألفاظها وأسلوبها، يرحمون هذين الخطيبين اللذين كانا يختلفان إلى هذه الغابة أو تلك من الغابات التى تحيط بباريس، فيأويان إلى ظل شجرة من أشجارها ويأخذان فى هذه القراءة العسيرة الشاقة المرهقة، التى لم يكن بينها وبين ما كان يملأ قلبهما من الحب والأمل سبب قريب أو بعيد، وقد أقبلت بوادر الصيف من ذلك العام، وجعل الفتى يستعد للامتحان، ثم دُفع إليه فى شهر يونيو فلم يتردد وإنما أقدم فى عناد.

وألقى نبأ النجح إلى الفتى. فلم يصدقه، حتى صحبته خطيبته إلى السوربون، وقرأت له اسمه بين أسماء الناجحين، ثم لم تعد به إلى البيت حتى حجزت أمكنة للأسرة كلها فى بيت موليير، تكافئ بذلك صديقها وخطيبها على هذا النجاح الذى لم يكن مرتقباً.

"أمينة" والحب الواعى :

وماذا فى الحب أكثر مما أعطاه لطفلته، وماذا فى الحب مما سجله ابنته " أمينة ".

هذا الحب الواعى الواثق، المدرك لحنايا النفس، والمستشعر رواسبها، يبسط لها نفسه على الورق، كما سبق وقلنا فى سيرته الذاتيه، أو أدب الاعترافات الصادق مع النفس والروح، ليقول لها فى أيامه الصادقة، دون خشية من لوم أو خوف من نقيصة:

" أنك يا ابنتى لساذجة، سليمة القلب، طيبة النفس، أنت فى التاسعة من عمرك".

فى هذه السن التى يعجب فيها الاطفال بآبائهم وأمهاتهم، ويتخذونهم مثلا عليا، فى الحياة، يأثرونهم فى القول، والعمل ويحاولون أن يكونوا مثلهم فى كل شئ، ويفاخرون بهم إذا تحدثوا إلى أقرانهم أثناء اللعب، ويخيل إليهم أنهم كانوا أثناء طفولتهم كما هم الآن، مثلا عليا يصلحون أن يكونوا قدوة حسنة وأسوة صالحة.

أليس الأمر كما أقول..؟ ألست ترين أن أباك خير الرجال وأكرمهم، ألست ترين أنه كان كذلك خير الأطفال

وأنبلهم، ألست مقتنعة أنه كان يعيش كما تعيشين، أو خيراً مما تعيشين؟ ألست تحبين أن نعيش الآن كما كان أبوك حين كان فى الثامنة من عمره، ومع ذلك فإن أباك يبذل من الجهد ما يملك وما لا يملك، ويتكلف من المشقة ما يطيق ومالا يطيق، ليجنبك حياته حين كان صبياً.!

لقد عرفته يا ابنتى فى هذا الطور من أطوار حياته، ولو أنى حدثتك بما كان عليه حينئذ لكذبت كثيراً من ظنك، ولخيبت كثيراً من أملك، ولفتحت إلى قلبك الساذج ونفسك الحلوة... باباً من أبواب الحزن، حرام أن يفتح إليهما وأنت فى هذا الطور اللذيذ من الحياة، ولكنى لن أحدثك بشئ من هذا، ولن أحدثك بشئ مما كان عليه أبوك فى ذلك الطور الآن.

لن أحدثك بشئ من هذا حتى تتقدم بك السن قليلاً، فتستطيعين أن تعرفى أن أباك قد " أحبك حقاً، وجدّ فى إسعادك حقاً، ووفق بعض التوفيق لأن يجنبك طفولته وصباه...!، نعم يا ابنتى، قد عرفت أباك فى هذا الطور من حياته وأنى لأعرف أن فى قلبك رقة وليناً، وأنى لأخشى.... لو حدثتك بما عرفت من أمر أبيك، حينئذ، أن يملكك الإشفاق، وتأخذك الرأفة فتجهشى بالبكاء...!

لقد رأيتك ذات يوم جالسة على حجر أبيك، وهو يقص عليك قصة " أوديب ملكاً" وقد خرج من قبره بعد أن فقأ عينيه، لا يدرى كيف يسير، وأقبلت ابنته "أنتيجون" فقادته وأرشدته.

رأيتك ذلك اليوم تسمعين القصة، مبتهجة من أولها ثم أخذ لونك يتغير قليلا قليلا، وأخذت جبهتك السمحة تربد شيئاً فشيئاً.

وما هى إلا أن أجهشت بالبكاء، وانكببت على أبيك، لثما وتقبيلا، وأقبلت أمك فانتزعتك من بين ذراعيه.. ومازالت بك حتى هدأ روعك وفهمت أمك، وفهم أبوك، وفهمت أنا أيضاً أنك ما بكيت إلا لانك رأيت "أوديب الملك" كأبيك مكفوفاً، لا يبصر.. ولا يستطيع أن يهتدى وحده، فبكيت لابيك، كما بكيت لاوديب.!

فما أروع ما خطه قلم أب ابنته، وما أروع اعترافاته بفضل المرأة على حياته، بعد أن قص لابنته.. معاناته فى أيامه كاملة، بكل ما فيها من ألم وحرمان ودموع ليقول لها :

" فإن سألتنى، كيف انتهى إلى ما هو الآن، وكيف أصبح شكله مقبولا، لا تزدريه العين، وكيف استطاع أن يهئ لك، ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية، وكيف استطاع أن يثير فى نفوس كثير من الناس، ما يثير من حسد.. وحقد وضغينة،

وأن يثير فى نفوس ناس آخرين، ما يثير من رضا وإكرام وتشجيع.

إن سألت كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال، فلست أستطيع أن أجيبك، وإنما هناك شخص آخر، هو الذى يستطيع هذا الجواب فسليه ينبئك...؟ أتعرفينه..؟ انظرى إليه.. هو هذا الملك القائم، الذى يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج، ألست مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار..؟

لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك.. فبدله من البؤس نعيماً، ومن اليأس أملا، ومن الفقر غنى، ومن الشقاء سعادة وصفواً..!

ليس دين أبيك لهذا الملك، بأقل من دينك فلتتعاونا يا ابنتى على أداء هذا الدين، وما أنتما ببالغين من ذلك بعض ما تريدان...!

المرأة فى فكر طه حسين

أولا : الدعوة لتحرير المرأة

كان طه حسين في حياته، وفي كتاباته مؤيداً للمرأة يقف بجانبها دائماً، يلمس مدى ما تلقاه من ظلم، ومن رواسب، ومن أغلال، ومن قيود، ويتمنى لها التطور والخلاص من أسر التقاليد، ويريد لها التغير الاجتماعي والثقافي، وفي حياته مع زوجته تلك الحياة التي تجعلها شريكة في فكره، تؤكد وتؤيد مدى إيمانه بضرورة مشاركة المرأة للرجل، في أداء دورها الاجتماعي، وكان إيمان طه حسين بالحب عميقاً، وبأنه السبيل الوحيد لتطهير النفوس، من كل ما يشوبها من رواسب الحقد والانتقام.

والحب كما قال : "لا يسأم ... ولا يمل .. ولا يعرف الفتور .. ولا يخاف الإخفاق ، ولكن يلح حتى يظفر أو يغنى صاحبه "..!

الإصرار والمثابرة في كل شئ، حتى في الحب.. في الحياة، وفي القصة، والرواية..؟

وإذا اطلعنا على مؤلفات " طه حسين " وكتاباته عن المرأة، نجد أنها احتلت مكانة بارزة في فكر وكتابات " طه حسين "، حيث يعتبر المنادى الأول برقي فكرها، والمنادى

الأول بصدق أحاسيسها، والمنادى الأول بعمق حنانها وعظيم وفائها وعطائها، وهى تشكل عنده النموذج الأنثوى للوفاء، فهى المرأة التى تضحى، والمرأة التى تفنى نفسها، وتتفانى فى خدمة الغير، والمرأة التى يطهرها الحب، وهى تشكل بصفة عامة فى مفهومه وفى عقيدته، فى إيمانه عنصراً من أهم عناصر " الترابط الانسانى".

الإنسانية كلها تنبع من الأمومة، والأمومة هى العطاء، والحب هو الهبة الإلهية، ونفحة من السماء يهبها الله لمن أراد له الخير، فيهبه الحب الرائق والمودة الصافية، والعطاء المتفانى فى زوجة تمثل له قمة العطاء الإنسانى...!

فنعمة البصر التى حرم منها، جعلته يستشعر أصفى لمسات الحنان، وقرب روح من روحه جعلته يستكين، ويهدأ مع قوة كفاح ونضال خفية، تنبعث من أعماقه للحصول على المرأة التى يحبها، ثم للاحتفاظ بهذه المرأة التى أحبها..! وتنعكس هذه الانفعالات الوجدانية على إنتاجه الأدبى، ونظرته الشاملة للمرأة.

فهو يعكس أبا العلاء تماماً، شبيهاً له فى نظرة تشاؤم للحياة.. وللمرأة، متفتح هو للحب، متفتح هو للحياة، متفتح هو للكفاح في سبيل وجود كيان أنثوى، أعطاه كثيراً وسوف يبادله عطاء بعطاء.

نظرة أبى العلاء التشاؤمية حين يقول :

" إنما الحياةُ شرٌ، لننصرف عن هذا الشر، وإنما الوجود بؤس، فلنقطع أسباب هذا البؤس، والمرأة فى أدب "أبى العلاء" ماذا يقول عنها وعن تعليمها :

" احجبوا عن نسائكم ... وبناتكم من العلم.... مالا ينفعهن ولا يجدى عليهن، دعوا ذلك إلى ما يفيد المرأة من حيث هى أم، وصاحبة بيت، علموها النسيج... والغزل.. علموها القراءة والكتابة.. لتصبح المرأة المتفائلة المليئة بالعمل... والتطلع..! إلى المستقبل تزينه المرأة المتعلمة.

تذكر وقوفه بجانب "مى" وإعجابه بفكرها، وأدبها، كصورة للمرأة الأديبة المتعلمة، من كتاب "معك" نسجل هنا.. ما لمسته شريكة عمره من التصاق بشخصية أبى العلاء فهى تقول:

"الظل .. غالباً ما استخدمت هذه الكلمة أثناء الحديث عنه .. لمعارضتها .. بالنور الداخلى الواضح وضوحاً شديداً، أما الظل الكبير.. فهو ظل شاعر أعمى شهير عاش منذ عشرة قرون، ورافقه طيلة حياته، فقد كرس له رسالته المصرية... وكتابين آخرين، لكنه فى الواقع كان يتحدث عنه.. دون توقف، ويبدو أنه عاش آلام هذه النفس المثقفة، وتحسس مرارتها بحيث أنه كاد " أن يتقمصها فى بعض اللحظات..؟

ليس لدى من التبجح أن أكتب عن "أبى العلاء" غير أنه كثيراً ما قيل .. وتردد ذلك أن طه أبا علاء آخر" إنسانان غارقان فى الليل نفسه، إنسانان يرفضان أيضاً قدراً ظالماً، إنسانان يملكان وضوحاً خارقاً، وموهبة فى التعبير، استثنائية... وكبرياء شامخ، وجرأة فكر، كلاهما يعرفان نفسيهما ويريدان أن يكونا حرين، وكلاهما كان يحاكم العالم، دون أى وهم..!

غير أنه لم تكن لدى طه حسين، تلك النزعة التشاؤمية السوداء المطلقة التى لا مخرج منها.. عندما كان يقول: " وبعد...!" أو .. ثم ماذا بعد... فقد كان يطرح سؤالا لا يخلو من قلق عن المستقبل، الذى لا نسيطر عليه أكثر مما يطرح شللا يشل الإنسان..

كما أنه لم يكن لديه هذا الاحتقار لليأس، الذى تغلب على أبى العلاء، كى يهرب منهم، ولينعزل فى وحدة قاسية، حتى ولو كان يشعر فى أعماق نفسه .. بأنه وحيد وحدة لا خلاص منها..!

إن أبا العلاء .. يرفض المتكبر، إنما يرفض سجن العاهة الذى يواجهه، والعقبات التى اعتبرت مما لا يمكن التغلب عليها.

كان يرفض الآثام والمظالم، كما كان يرفض الضغوط، والإكراهات وكل أنواع العبودية، ولكن لم يقل "هيا إلى الحياة، إلى النضال.. إلى الحنان" ،أما طه حسين فقد أراد أن يحيا، وأن يحيا بجرأة مستقيماً، مستنيراً فى داخله، بحيث لم يكن يعطى الانطباع بأنه أعمى، ولقد حدث دون أن يقصد ذلك، أن علم كيف تكون الحياة لأناس آخرين، كثيرون هم الذين قالوا له ذلك، بل إن بعضهم قد كتب له ذلك، بكلمات رائعة أحياناً.. ولا يمكن أن أتصور أن هذه القوة التى لاتقهر .. هذه القوة الكريمة هى شئ باطل...!

وهكذا نجد "المرأة فى حياة طه حسين، أو طه حسين فى حياة المرأة" ثلاث نماذج من النساء، شكلت كل منهما صورة المرأة فى عقل طه حسين.

عاش "طه حسين" حياته، يدافع عن سفور المرأة وتحريرها من الحجاب، وكانت فى ذلك الوقت "فكرة عصرية" أخذها من تفتحه على الثقافة والحضارة الغربية، وتقديم فكره.. وكتب فى سنة ١٩١١ سلسلة من المقالات يدعو فيها إلى هذا الرأى، وهو يلخص مقالاته فى هذه الكلمات "لا فرق بين المرأة أو الرجل.. فى الحرية، وكلاهما مأمور بمكارم الأخلاق،

فالمرأة لا تخلو بالأجنبى ولا تسافر وحدها، ولا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى، ولها بعد ذلك أن تفعل ما تشاء فى غير إثم.

لها أن تطرح النقاب، وتدفع الحجاب، وتتمتع بلذات الحياة، كما يتمتع الرجل، وليس عليها إلا أن تقوم بما أخذت به من الواجب لنفسها، وزوجها، والنوع الإنسانى كافة، هذا هو حكم الإسلام وهو رأينا الذى لا نحيد عنه، ولا نعدل به رأياً آخر...!؟؟

وقد كان هذا الرأى الذى قال به "طه حسين" منذ أكثر من نصف قرن يعتبر رأياً تقدمياً، مفرطاً فى تقدميته، يمكن حسابه ضمن أراء المدرسة المتطرفة آنذاك فى تحرير المرأة، وعلى رأسها قاسم أمين."والمدهش أن فكر هذا التقدمى العظيم، الذى كان رائداً من رواد التنوير، أن تأتى بأكملها فى العشرينات والثلاثينات من القرن الماضى، ولكن تصورنا طرحها الآن، وبعد خمسة وسبعون عاماً، أظن أنه سوف يهاجم ويكفر".

وقد رد على هذا الرأى، الشيخ عبد العزيز جاويش أحد زعماء الحزب الوطنى، وقال فى هذا الرد الذى دافع فيه عن الحجاب:

"إن رأى الأستاذ "طه حسين"، يعتمد على أصلين أوليين...

الأول :- ظنه أن الحجاب إنما اصطنع ليكون عقوبة على المرأة.

والثانى :- قوله إن المرأة أو الرجل إذا نشأ على قواعد الدين وأصوله، وهذبت أخلاقهما أمنا عادية البشر، ولم تحتج إلى حجاب أو نقاب، أما الأصل الأول، فنحن نخالف الأستاذ فيه ونقول إن الحجاب لم يتخذ عقوبة للمرأة، ولا حجة عليها، وإنما اتخذ تكريماً لقدرها وتعظيماً لأمرها، ودفعاً للأذاة عنها.

فإننا لا نخاف المرأة على نفسها فقط، بل نخافها ونخاف معها الشبان، ومايتصفون من سوء الخلال، وكواذب الأخلاق.. وأما الأصل الثانى.. فنحن نوافق الكاتب عليه فنقول.. إن تهذيب الأخلاق وتربية النفوس على أصول الدين، يغنيان أكثر من غناء الحجاب والنقاب..!

لقد وقف طه حسين، موقفاً مدافعاً عن المرأة فى حياته، وفى توليه منصب الوزارة، وفى حياته الشخصية، وفى قلمه الروائى، ومعاركه العسكرية والسياسية، وكان لها المعلم الأول. فإن طه حسين كما قالت تلميذته "سهير القلماوى".. لا يستطيع إلا أن يكون معلماً، عاش معلماً ومات معلماً، وهو فى قصصه، لم يستطع أن يبدأ إلا من هذه الصفة..!

وكان دوره الجامعى البارز، فى الأخذ بنصرة الفتاة المصرية، ووقوفه بجانبها، مؤازراً ومشجعاً، ومؤيداً ليفتح لها أبواب الجامعة المصرية، كان لهذا الدور أثراً بالغاً فى رقى الفكر، وانتشار التعليم الذى جعله كالماء والهواء، مُصراً كل الإصرار.

إن فى تعليم الفتاة وتهذيبها، هو تعليم للأم التى سوف تنجب الأبناء، عماد مصر، وعماد المستقبل، وهذا من واقع معاناته هو، أصيب به فى طفولته، كان أساسها الجهل، وعدم التبصير، ومن هنا كانت جملته الهادرة على التركيز على التعليم، وكان من نتيجة وقفته هذه، أن وصلت الفتاة المصرية للتعليم الجامعى، وهذا ما يذكر له بالفضل والحمد والشكر والثناء، من جيل رائدات الجامعة، ومن الأجيال اللاحقة فيما بعد.

نموذج مشرف للمرأة المصرية :

وكانت الدكتورة سهير القلماوى من النماذج المشرفة للمرأة المصرية، التى شجعها وأعانها الدكتور طه حسين على تخطى الصعاب، والصمود أمام هجمات المعادين لفكرة تعليم الفتاة.. التعليم الجامعى....!

وفى ذكرى رحيل "طه حسين" معلمها الأول وأستاذها، سجلت له بوفاء نادر كتابها، "ذكرى طه حسين" لتقول له:

"أستعيد منك عنوان هذا الكتاب "ذكرى أبى العلاء" فكم أخذت عنك فى حياتك، وكم سأظل آخذ منك ما حييت، فما أنا إلا كتاب من كتبك، وكما تبدو شخصيتك فى كل كتاب لك، وتتكرر مميزات أسلوبك فى كل مؤلف، فكذلك طمعت طوال تلمذتى عليك وسأظل أطمع، فى أن أحمل بعض مميزاتك وبعض خصائص أسلوبك.. لقد حببت إلينا فى مراحل شبابنا الأول، "أبا العلاء المعرى" بكتاباتك وبتدريسك، وأنا أطمع فى أن أحبب الشباب من طلابنا فى أدبك.

وكانت تفصلك عن أبى العلاء سنوات تقرب من الألف، يوم كتبت عنه بحثك الأول لنيل الدكتوراة، فأدخلت به منهج البحث العلمى فى دراستنا الأدبية، وأنا لا يفصلنى عنك إلا عام

واحد، واتخذت بطريقة البحث العلمى فى "ذكرى أبى العلاء" وطريقة "التأليف الأدبى" الممزوج بالعلم.... فى "مع أبى العلاء فى سجنه" بل أنك جاوزت ذلك إلى محاولة ترجمة شعر "أبى العلاء" إلى أسلوب عربى حديث، ليقرأ الشباب من جيلنا فى كتابك "صوت أبى العلاء".

وقد تعودت الطالبة أن ترجع إليه فى شئونها وكان لها الأستاذ، والأب، والمرجع الأمين لكل مشاكل ومعوقات حياتها...!

لم تنس المرأة الكاتبة والمبدعة "طه حسين"، وكما تناولها فى فكره وأدبه، واحتلت مكانة مرموقة فى كتاباته الفكرية والأدبية الرائعة، أيضاً احتل هو مكانة بارزة فى كتابات بعض الكاتبات، فنجد على سبيل المثال... الكاتبة والناقدة "لوسى يعقوب" تخلده فى كتابها الرائع "عيون ظالمة"، وذلك من منطلق تأثير فكره وأدبه على تكوينها الفكرى والأدبى، فقد لعب دوراً مؤثراً فى عشقها للأدب، وأخذ بيدها لتسير فى نفس الدرب العميق، فكرياً وثقافياً وإنسانياً.

عيون ظالمة :

وفى كتاب "عيون ظالمة" للكاتبة القصصية والناقدة "لوسى يعقوب" من منطلق عشقها للأدب وحبها للعلم، إلى ذلك... النور الذى انطفأ.. قدمت تسجيلا ونشرته وأعلنته فى كتابها السالف الذكر، بل وفى الصحف والمجلات فى ذكرى وفاة "عميد الأدب العربى" حيث كتبت تقول :

"كأديبة عاشت بمثلها... وبخيالها الأدبى الواسع كانت لى طفولتى، وكان لى شبابى، وكان لى مثلى الأعلى "طه حسين"...!

كان يمثل لى قيمة الفكر العربى، كما كان فى نظرى عملاقاً، لا يرقى إليه الفكر أو الخيال، له ملهماته الفكرية الخارقة، ليس لمدرسته الفكرية الشامخة الشاملة، ولكن بالنسبة لكونه أديباً يفتقد البصر، ويبدع وينتج وكان هذا الافتقاد فى مفهومى، وفى أحاسيسى وفى عقيدتى، هو سر عظمته وسر هيمنته على الفكر فى أوسع صوره... ومجالاته...!

كانت هذه النغمة المفقودة فيه هى سر إيمانى به، وبمعجزاته الأدبية الخارقة، فإن إحساسه العميق بالأدب... تدفق

فى صورة إلهام خارق، ليتركز بدلا منْ قوة البصر، فى قوة الفكر.!

وكان صوته أيضاً مكملا لفكره، هذا الصوت العميق الهادئ، المميز بنغمة مريحة... واثقة، تسيطر على كل كيانك، وتستحوذ على تفكيرك لتعيش معه، فكرياً، روحياً...!

أننى أتكلم هنا.. عن إحساسى به كأديبة.

فى أول تفتح عهدى بالحياة الادبية، ولقد سجلت هذا الاقتناع به فى كتابى الأول "عيون ظالمة" الذى صدر فى الستينيات، بهذا التعريف عن نفسى وعن طفولتى:

" ليست هوايتها وليدة الساعة، بل بتعبير أدق ولدت معها، تكتب وتقرأ منذ الصغر...!

"وفى سن العاشرة تقدمت لمسابقة أدبية عن أمنيتها للعام الجديد، فتمنت أن تكون سكرتيرة لفيلسوف ضرير البصر "لتكون كيانا فكرياً له" تكون قلما يسجل أفكار عميد الأدب العربى الكبير.."

وكانت تعنى بذلك مثلها الأعلى.. الدكتور "طه حسين".

نالت عن هذه القطعة الأدبية الجائزة الأولى، تقول الكاتبة "لوسى يعقوب" عندما ركزت دراساتى وقراءاتى، وسرت بها وسارت بى "مع الأيام"، وتذوقت مذاقها واستسغت أناتها.. من كلمات

وأفاق واسعة، فتنت بها وانبهرت من فكر وإرادة، قوة شخصية وصمود وإصرار، وعلم، ووعى عميق، وثقافة إعجازية خارقة، لم يسعنى، ولم يكفنى إلا أن أمسك بالقلم وأسجل خواطرى، واعترافاً منى بجميله على فكرى لم أملك نفس من كتابة الاهداء:

إلى من علمنى "عشق الفكر" ومن علمنى عبادة الأدب، ومن جعلنى أطمع فى أن أسير فى هذا الخط الفكرى العظيم، وجعلنى من قراءاتى الفكرية لأدبه، أعرف كيف أمسك بهذا القلم، وكيف أحاول أن أكتب، وأن أعبر، لا كما يكتب هذا العظيم فى كتابه "الأيام" ولكننى أقول.. "حاولت من قراءاتى لما يكتب أن أكتب..! لم أره.. ولم أقابله، ولكن عشقى لأدبه، كان عظيماً... ولم أستطع أن أعبر عن هذا العشق للأدب الضخم، إلا بالإهداء الذى سجلته على أول كتاب صدر لى، ليكون اعترافاً منى بجميل فضله علىّ، فقط من قراءاتى له، ومن سماعى لأحاديثه الشيقة الممتعة :

إلى الروح .. التى عانقت روحى
إلى لمسة الحب الصافية
التى أيقظت شعلة عواطفى..!
إلى الفكر المتجدد
إلى شعاع الوجود

إلى الينبوع المتدفق من العلم والادب
إلى نسمة الحياة
إلى العبير النضير
إلى من علمنى معنى الحياة
وملكت به .. مفاتيح الكون
إلى الأدب .. الذى أعشقه
إلى كل من ساهم فى تحرير الفكر
وأنبثاق شعلة الفن
إلى من أحببت الأدب .. فى صورته ..
وألهمنى الطريق .. من هدايته
واهتز قلمى ... بانتفاضة نفحته
أهديه ... " عيون ظالمة "

لوسى يعقوب

ثانياً : صورة المرأة فى أدب " طه حسين "

انعكست صورة المرأة الإنسانية على أعمال "طه حسين" الأدبية، وبرزت المرأة بشكل جديد، مما يجعلنا ندرك أن التأثير والمؤثرات لها دور قوى، حتى أنه لاحظ أن أروع أعماله الروائية فى رائعته "دعاء الكروان".

حيث يرسم "طه حسين" فيها صورة لمجتمع ظالم، عبد لقيم عقيمة.. ومبادئ عفنة.

كما أنه يوضح، هل انتصر الانسان فى هذه الرواية؟! لا شك أنه انتصر أمامِ ظروفه، عندما تحررت البطلة من الخوف وحطمت جداره، ورحلت لتنتقم من الذى كان السبب فى ضياع أختها.

ولم يكن هناك قِصاص فى النهاية، ولكنه الأخذ بالثأر، وهى ظاهرة اجتماعية منتشرة فى صعيد مصر.. حيث دارت أحداث رواية "دعاء الكروان"، وهنا يركز "طه حسين" أيضاً على قهر المرأة بالفقر والحرمان نتيجة لفقد الأب، ودفع الأم إلى أن ترحل مصطحبة بنتيها خارج البلدة، بحثاً عن الرزق، فتدفع الأم هنادى لتعمل كخادمة فى بيت رجل ميسور الحال، وتقاسى الظلم الاجتماعى فتتعرض للاغتصاب، ورفض المغتصب

الزواج منها، وتكون الطامة الكبرى بل والقهر الأعظم الذى يقع عليها، عندما يثور الخال فيقتلها كى يغسل عار تفريطها فى عفافها. وقد كتب "طه حسين" هذه الرواية بعد ارتباطه بشريكة عمره الوفية..! لذا فإننا نلاحظ أن آمنة فى دعاء الكروان قد عاشت أزمتين متصلتين :

الأولى سببت تشردها الاجتماعى، والثانية أحدثت ضياعها العاطفى، أما الأزمة الأولى فتشكلها التقاليد والعرف البالى الذى قضى على ثلاث حرائر أن يتشردن فى الآفاق بسبب جريرة أب فاسق، ويصور هذا العرف فى سيف الخال ناصر، الشيطان الذى قتل هنادى، وهذه الحادثة توحى بقدر من السخرية من بعض القيم الموروثة التى تشكل حياتنا دون أن نشجبها.

أما الثانية فهى سوء الوضع الاقتصادى وما استتبعه من عبودية للطبقة الوسطى، وآمنة تعى ذلك جيداً حين تذكر "وصفت أيام قليلة ولكنها ثقيلة، كانت أمنا تدور فيها بنفسها، وبنا على البيوت تعرض نفسها وتعرضنا للخدمة، كما تعرض الإماء على السادة" .

ولا شك أن هذا الإحساس بالتفاوت الطبقى هو الذى أدى لسقوط هنادى، وبالتالى لتجسيم هذا السقوط فى صورة مأساوية.

شخصية آمنة تتحرك على جبهات عدة، تتعامل معها بخوف وحذر واشتياق وأمل، مما أكسبها حيوية وقدرة واعية على إدارة الحركة حتى لا تسقط مثل هنادى، لذلك لا تفهم صورة آمنة إلا إذا حملناها طيف هنادى وشبح مأساتها، ولكن ضراوة الإحساس بالمأساة، لا تفقد آمنة القدرة على الحركة أو تسلمها إلى قدرية عمياء، كأمها التى لم تعد ترضى عنها، ولا عن خالها الشيطان، وإنما تفكر فى دم شهيدة مظلومة والجانى مازال يمارس غوايته، وتدخل آمنة فى صراعات عدة، تديرها بعقلية المنتقم الواعى وكيد الأنثى الجريحة، والمعركة التى تستوجب التأمل فى صراعها هى محاولتها لإفساد زواج – سيدتها– خديجة ابنة المأمور، من المهندس الذى اعتدى على أختها الشهيدة.

فهل كان هذا إشفاقاً عليها من زوج فاسد الخلق، أم إيثاراً لنفسها به حتى تنتقم منه على طريقتها؟

لذلك يتداخل فى أمرها الرغبة فى الانتقام، حيث "أصبح مما لابد منه بد، أن يكون الصداع بينه وبينى فليعلمن بعد وقت طويل أو قصير، أذهب دم هنادى هدراً أم لا يزال على هذه الأرض من هو قادر على أن يظفر له بالثأر؟"

كما يتداخل التطلع الطبقى، متجاوزة آمنة بذلك حـــدود طبقتها الفقيرة لتنتمى إلى طبقة أعلى، وإلى مستوى آمن وأسعد، ومما يؤكد- تطلعها الطبقى- أن سلاحها للانتقام كان (ورديـــاً حالماً) إلى حد كبير، كان انتقامها (بالحب) الذى يطمع فى كـــل شئ، ويرضى بأقل شئ، بل يرضى بلا شئ.

ومن هنا بدلا من أن تمقته أو تحـــاول إيـــذاءه نراهـــا أصبحت "عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها فى يقظة أو نوم، إنما هى أصبحت مـــصطحبة هـــذا الـــشاب إن حـــضر، ومصطحبة هذا الشاب إن غاب، لا تهم بالخلوة إلى ضـــميرها حتى تجد صورته ماثلة فيه، ولا تمد عينها إلا رأت شخصه ولا تمد أذنها إلا سمعت صوته، قد أخذ عليها الحيـــاة مـــن جميـــع أقطارها، وقد زاد عنها كل شئ وكل إنسان وزاد عنهـــا حتـــى أختها، تلك العزيزة وأشباحها تلك الحمراء"، وعلى هذا نرى أن آمنة كانت تهدف واعية وإن لم تصرح إلى أن تتجاوز بالوعى والحب حدود طبقتها، ولعل من أمتع ما قدمته الرواية فى هـــذا القسم هو تسجيلها لبعض الشخصيات الشعبية النسائية التى كادت تنقرض مثل :

زنوبة المرابية " التى تعمل بالتجارة الماديـــة بعـــد أن بـــارت تجارتها فى دنيا الجسد.

خضرة الدلالة " تحضر للنساء الملابس وأدوات الزينة من البندر، فتسعد الرجال بزينة نسائهم وتشقيهم بأثمانها الغالية.
نفيسة العرافة " التى لا تستريح من السعى بالرسائل والحاجات بين رجال المدينة ونسائها، وبينهم جميعاً وبين الجن والعفاريت، ولا تكف عن اكتشاف الطالع "والبخت".

والجزء الثانى من الرواية (دعاء الكروان) تنفرد به آمنة وتحتويه ليعبر عن أزمتها الخاصة، الاجتماعية والعاطفية بأسلوب شاعرى يرضى الوجدان أكثر مما يقنع العقل.

ونحن نقدر للرواية مذهبها الرومانسى وأسلوبها الشاعرى فطه حسين هنا يقف موقفاً نقدياً، يتضح من رؤيته للأشياء التى تثبت وقوفه شامخاً فى الساحة الأدبية، لكى يصل إلى تكوين جديد للإنسان المصرى فلم يناور وإنما عرض الحقيقة ساخرة.

وهو أيضاً فى معالجته الفنية الإبداعية يتسلل إلى بواطن الأشياء، ويندمج فى مجرى الحديث مع الآخر، كما هو واضح فى النماذج التى سبق طرحها، وذلك دون أن يفقد الأنا.. بل يحتويها، حين يتمثلها بل يمتد به الحال إلى إبراز عنصر المفارقة، كما هو واضح فى بعض النماذج المقهورة فى "المعذبون فى الأرض".

المعذبون فى الأرض :

فى هذا العمل الهام، يستعرض د. "طه حسين" صوراً من الحياة الاجتماعية، تسلط الضوء على الكثرة الكثيرة البائسة، والقلة القليلة التى تعيش فى رغد من العيش ولا تحفل بعناء البؤساء..

ففى حديثه عن خديجة، التى نشأت فى ظل أسرة بائسة شقية، كما ينشأ غيرها من عشرات العذارى، بل ومن الفتيات فى المدن والقرى، ولكن هذه الفتاة (خديجة) امتازت بوجه سمح وجمال نادر، واضطرتها ظروفها القاسية وشظف العيش، أن تعمل خادمة طرف أسرة ميسورة الحال، حتى تتمكن من تحرير أبويها وأخويها الصغار، من البؤس الذى يعيشون فيه، يتقدم لخديجة خطيب موفور الحال لكنها ترفضه، وتفضل حياة الحرية والاستقلال عن هذه الحياة الجديدة، التى تكبلها بالقيود، مما أدى إلى إثارة الشك والريبة فى نفس أبويها، واعتقدا أن سبب رفضها أنها فرطت فى نفسها، فى النهاية ترضى الفتاة بهذا الزواج رغماً عنها، لذا زفت إلى زوجها شاحبة الوجه، فى قمة السعادة.

تنتهى مأساة خديجة بانتحارها فى النهر لأنها أكرهت على هذا الزواج، ولم يستطع الحب نفسه أن ينقذها من الموت.

وهنا يعرض لنا (طه حسين) قضية اجتماعية خطيرة تعانى منها المرأة، وخاصة تلك التى قهرها الفقر والبؤس من ناحية، والقهر الأسرى من ناحية أخرى، والذى حرمها من التعبير عن حريتها كامرأة.

والجدير بالذكر أن (طه جسين) يرى فى المرأة الجمال، ويؤكد هذا وصفه البارع لجمال (خديجة)، ولم تكن تمتاز بإشراقة الوجه ونقائه فحسب، وإنما كان إشراق وجهها ونقاؤه مظهراً لصورة رائعة، بارعة من الجمال والحسن، وقد أسبغت على جسمها كله، فكان شيئاً رائعاً متقناً، كأنما صنع فى تمهل وأناة، وتأنق كأحسن ما يتمهل المثال البارع، ويتأنق ويتأنى بعمله. فيخرج تمثاله.. آية فى الروعة، وفتنة للقلوب والعيون...!

ولا يغفل في وصفه، عذوبة الصوت، فالجمال لابد أن يكون متناسقاً منغماً موصولا، بلغة مترابطة من الحسن والنغم، علماً بأن مسألة الصوت تهمه أكثر ما تهم الآخرين.

"فإن صوتها إذا ما تكلمت كان عذباً، صافياً، ممتلئاً لا تكاد الاذن تسمعه، حتى يحضر فى النفوس هذا الوقت القصير،

بين انطلاق الفجر فى ظلمة الليل كأنه السهم، وإشراق الشمس على الارض، حتى يملاها جمالا ونوراً.!

وكان صوتها ذلك الرخص.. العذب.. الصافى.. يلائم وجهها المشرق النقى، وخلقها الرائع.. السوى.. فكان شخصها أشبه بأية من أيات الموسيقى، التى لا تلذ السمع وحده وإنما تلذ كل ما فى الإنسان من ملكات الحس والشعور والتفكير..!

هذا الخيال المحلق، فى أفق الجمال.. هل يمكن لفيلم أن يصور مثل هذه الصورة المشرقة. لجمال المرأة. إنه الخيال المبصر، والبصيرة النافذة، والشعور المرهف، الذى تراءى أمامه صورة من صور الجمال، لا يمكن لمن يراها بالفعل، أن يصفها مثل هذا الوصف..!

الحب الضائع :

في هذه الرواية، يعرض لنا (د.طه حسين) نموذجاً للمرأة التي تحب زوجها لدرجة العشق، وتعيش معه في إحدى البلاد العربية حيث مقر عمله، ويظل هذا الحب قائماً حتى بعد أن علمت بمرضه القاتل حيث أصيب بالسرطان، وأصبحت أيامه في الحياة معدودة، تضطرها الظروف للعودة إلى أرض الوطن (مصر)، وقد فقدت زوجها الحبيب، ولم يعد لها شئ في هذا الخواء، بعد وقت ما تلتقي بصديقة عمرها وهي سيدة شابة، متزوجة وتعيش في سعادة وهناء مع زوجها وابنهما، فقد تزوجا عن حب وأنجبا طفلا جميلا، هو كل حياتهما.. يدق قلب الزوجة لصديقتها المنكوبة، وتنصحها ألا تعيش بمفردها.وهي في حالة من الفقد والحرمان، وتلح عليها أن تعيش وسط أسرتها الصغيرة، وتلبي لها الصديقة ما طلبت، وتمر الايام، وتقع في غرام الزوج حيث لم تجد ما يملأ فراغها سواه، بل ونشأت بينهما علاقة غرامية ملتهبة، بل واستأجر لها "فيلا" في مكان بعيد.

وتكتشف الزوجة المخدوعة هذه العلاقة، فتصاب بانهيار عصبي، وتفقد ثقتها في صديقة عمرها.. كما تتبدل علاقتها

بزوجها، وفى نفس التوقيت يأخذ الزوج قراراً بالزواج من الصديقة العاشقة، وقد وصل الحب لذروته ولابد من القدسية فى هذا الرباط.

ورغم أنهما حاولا الفراق أكثر من مرة، إلا أن القدر والظروف كانت تجمع بينهما، وتعلم الحبيبة أن الزوجة علمت بحقيقة هذه العلاقة، فتأتى إليها فى زيارة أخيرة.. وتعترف بالجرم الذى ارتكبته فى حقها، وتطمئنها بأنها ستختفى من حياتهما إلى الابد، فقد قررت السفر إلى الخارج، لكن القدر كان قد رتب لها نهاية مأساوية، حيث تعرضت لحادث عقب مغادرتها بيت الصديقة، وكان الرحيل الأبدى، ورغم علم الزوجة بوفاة الصديقة إلا أنها تحمل طفلها وتغادر بيت الزوجية، حفاظاً على ما بقى لها من كرامة، والجدير بالذكر أن صورة المرأة فى هذه الرواية (الحب الضائع) جديرة بالاحترام، فالمرأة التى جرحت كرامتها بسبب الخيانة تضرب بكل شئ عرض الحائط وتدخل دون أن تلتفت للزوج رغم أنه جاءها مستسلماً.

وعلى الجانب الآخر، نجد المرأة العاشقة صورة جيدة للمرأة، فإذا كانت قد أخطأت فلها مبررها لأن الإنسان غير معصوم من الخطأ.

هذه المرأة تفيق وتشعر بجرمها وتعتذر وتقرر الرحيل، لعل الزوجة الصديقة تغفر لها وتعود المياه لمجاريها. (د.طه حسين) هنا لا يدين الصديقة ولكن جعلنا نشعر بالشفقة نحوها، ونبرر لها إثمها الذى ارتكبته فى حق الزوجة، نظراً لظروفها القاسية، والفراغ القاتل الذى كانت تعيش فيه، ثم جعلنا ثانية، نقدر لها مشاعرها لحظة اعترافها للزوجة الصديقة وقرارها بالرحيل.

شجرة البؤس:

فى هذه الرواية (شجرة البؤس) يتناول (طه حسين) نماذج من النساء تختلف كل منهن فى الشكل والطباع، أبرزهن الشخصية المحورية للرواية، والتى كانت السبب فى غرس شجرة البؤس للعائلة كلها.. وهى نفيسة ابنة عبد الرحمن، التاجر القاهرى النشأة الذى تزوج جارية سوداء، وأنجب منها ولدين وابنة، وهى نفيسة هذه، وهى قبيحة الشكل، دميمة... وفى حاجة إلى العطف والشفقة، نشأت نشأة فيه كثير من الترف والعناية، وكان عبد الرحمن وزوجته السوداء رفقاء بهذه الصبية.. وشملاها بكثير من العطف لما رأيا فى قبح صورتها ودمامة شكلها.

تعرضت الفتاة لاستهزاء أخويها، لمنظرها البشع فنشأت وفى نفسها كثير من التعقيد، تحب الترف وتحس الأشياء من حولها إحساساً دقيقاً، وتتأذى بما يؤذى.. وما لا يؤذى.. ويخيل إليها فى كل حديث، يساق إليها أو يساق عنها، تعريضاً بها أو محاولة لايذائها.. فكانت سعيدة بين أخويها، وبين الناس ثم يعرض لنا د.طه حسين نموذجاً آخر فى هذه الرواية من النساء، وهى المرأة التى تعانى من القهر الابوى، وهى (سميحة)، تلك

الفتاة التى لم تعرف حنان الاب، ولا حنو الام، وأنى لها حنان الأب ولم يكن أبوها يراها إلا نادراً، ولوقت قصير يبسم لها ويلقى إليها كلمات حلوة، لم تكن تخلو من تكلف ثم ينصرف عنها، وقد ألقى فى يدها نصف القرش أو المليمات، وأنى لها حنو أمها، وقد كانت مريضة أكثر الوقت، لا تحفل بابنتها، ولم تعرف مرحاً ولا ابتهاجاً حيث كانت مقصورة على عشرة أختها جلنار، وبين أمها البائسة وخادمتها السوداء.

ولم تكن تختلط بصبيان الدار من أعمامها وعماتها الصغار، حيث كان يحال بينها وبين ذلك.

فأبوها يرى أن فى مخالطتها لهم شراً عليها، ويرى جدها أن فى مخالطتهم لها شراً عليهم، فقد جاء ذلك على لسان إحدى شخصيات الرواية (منى) وصف المعأناة، التى كانت الفتاة تلقاها.

فالصبية (سميحة) لا تبرح البيت إلى كتاب أو مدرسة أو عمل، فهى مرافقة لامها دائماً ،وهذا يعكس لنا مدى القيود التى كانت تحاصر المرأة فى هذه الحقبة من الزمن، مما يؤدى إلى الحد من حريتها، وضيق أفقها وعدم إدراكها... وقلة ثقافتها، وهناك نموذج ثالث فى (شجرة البؤس) يتناوله (طه حسين) – زبيدة– الزوجة التى تتسم بنقاء السريرة وتتوب دائماً إلى الله،

من كل ذنب.. وتطلب العفو من كل خطيئة، باذلة ما تملك من الجهد، لتبلغ رضا زوجها.. لانها تؤمن أن رضا الزوج من رضا الله، فهى المرأة التى تقدس الرجل، وتراه صورة من الإله على الأرض.. فهو معصوم من الخطيئة، وهو كالعسل الذى لا يشوبه العلقم.. حتى عندما يعامل امرأته بقسوة ذلك تأديباً لها، وإن ضاقت المرأة بشئ من ذلك فهى كافرة للنعمة.. ناكرة للجميل.. عاصية لله.. وهى من أجل ذلك صائرة إلى النار.

فزبيدة هذه، تعد نموذجاً للمرأة الطيبة الساذجة لدرجة انكسار الذات... لاتعرف قدر نفسها كمخلوقة بشرية، وكأنسانة.. ولا تؤمن بحريتها.. وتعتمد اعتماداً كلياً على الرجل، باعتباره السيد الآمر الناهى فى كل شئ، وكل ما يجى به، حتى لو كان فى غير صالحها، فهو مقدس.. ومشروع.. وتباركه العناية الإلهية، حتى فى حالة ارتكاب الزوج للخطأ الجسيم كالخيانة الزوجية مثلا، وتعتقد أن الله يغفر له هذه الخطيئة لأنه يصلى، ويصوم، ويستغفر الله، فالاستغفار يمحو الذنوب.

نعود لنفيسة.. وهى الشخصية المحورية للرواية والتى كانت السبب فى غرس شجرة البؤس للعائلة، وخاصة بعدما أنجبت ابنة أخرى تشبهها، وأعتقدت أن زوجها سيتزوج امرأة أخرى.. بعد أن يطلقها، تصير حياتها جحيماً فمرضت.. وأصبحت لا تتحدث مع أحد ولا ترغب فى الحياة، لقد أصبحت عاجزة... حتى عن أيسر الأشياء.. لكن المرأة مهما كانت قبيحة الشكل، لديها عزة وكرامة.. فقد طلبت من زوجها خالد أن يطلقها قبل أن يتزوج، ويعيدها إلى أهلها الفقراء.

استخدم "طه حسين" فى روايته (شجرة البؤس) أيضاً الموروث الشعبى (السحر والجان)، وجعله ضمن المعتقدات التى تؤمن بها المرأة، كما حدث لنفيسة حيث زارها طائف الليل لجنية.. وأنبأها بأن زوجها سيدخل عليها ضرة فى بيتها.. وهذا هو الشيطان الذى يصرف المرأة عن الحياة ويصرف عنها الحياة، كما يقول الشيخ الذى ندم على أنه عقد قرآن نفيسة وخالد، وترحم على أم خالد .. التى حذرته قائلة :

عندما تزوج نفيسة من خالد ستغرس فى بيتى شجرة البؤس، وها هى قد غرست، وخيمت بفروعها الكئود على البيت كله.

وتعتبر أم خالد هذه نموذجاً للمرأة الواعية التى تستشعر الخطر وتنبه له.

وكان من نتائج غرس هذه الشجرة، أن مضى الحال بنفيسة، وما ألم بها من حزن على حالها، أصبحت تحيا حياة سلبية من كل وجه، تعيش نهارها لا تعمل شيئاً، ولا تقول شيئاً، إنما تدخن وتشرب القهوة، وتنظر إلى ما فى الدار من حركة وتسمع ما يدور حولها، من حديث، ثم تأوى مع الليل إلى مضجعها، لا يدرى أحد، أتنام فيه أم لا تنام، وكانت تأتيها الأنباء بأن سميحة ابنتها رزقت غلاماً أو صبية أو فقدت هذا الصبى بنتيها أو هذه الصبية من بناتها، وكان ذلك كله.. يقال أمامها فتسمع وكأنها لا تسمع، ثم لا يظهر عليها فرح ولا حزن إنما هى الحياة الآلية.. التى لا تترك لصاحبها إرادة أو تفكيراً.

وكادت مأساة نفيسة أن تتكرر فى ابنتها جلنار، وهى الابنة الثانية.. والتى ورثت عن أمها القبح والدمامة، وأحبت

جلنار هذه سالم وهو قريب لها ولكنه فقير.. يعمل فى صناعة الأحذية، وأوشك أن يخطبها ولكنه تدارك لخطأ فعلته أخيراً، وتراجع عن الخطيئة، رغم إلحاح أمه وأبيه، أما جلنار فكلما نظرت لوجه أمها.. ولوجهها فى المرأة، استسلمت، وازدادات قرباً من أمها.. مما جعل نفيسة الأم، تفيق أخيراً.. وتشعر أنها أم لابنتين دميمتين، وبالتالى ظلت حزينة مكتئبة.

أديب :

مما لا شك فيه.. أن المرأة فى أديب "طه حسين" هى المحدثة اللبقة والأنيقة، حيث أُعْجب (أى الكاتب) بعزيزة وأمينة، ابنتى الملاحظ وافتتن بأحاديثهما تلك التى يلتوى منها لسانهما بلهجة أهل القاهرة.. فى تأنق وتكلف وتعمد للفتنة، وتنبهنا إلى أنها ليست منا، وإلى أننا لسنا منها فى شئ..

ورغم ذلك فهو لا يحب هذا التكلف.. والتصنع ويؤثر عليهما الفتيات الريفيات، وما يتميزن به من حياء حلو، وحديث عذب على غلظته، وصوت محبب إلى النفوس، على ما يضطرب فيه من بعض الجفاء، يقول... إنى من أنصار الحسن الطبيعى الذى لا يُجلب ولا يشترى، وإنما تجلبه الطبيعة، وتفيض به على الوجوه والنفوس، هذا الحسن الذى تحدث عنه المتنبى، أتذكر بيته الشعرى.. أنه مشهور ..

حسن الحضارة مجلوب بتطرية

وفى البدواة حسن غير مجلوب

والكاتب فى هذه الرواية (أديب) يطرح لنا أكثر من صورة للمرأة، كل منها تختلف عن الأخرى سواء فى طباعها، أو سمات شخصياتها..

فهذه فهيمة، ابنة عم أديب.. عافت صورته ورفضت الزواج منه، لأنه كان قبيح الشكل، رغم أنها لم تكن جميلة ولا وسيمة.

فى نفس الوقت يأتى الكاتب بنموذج آخر للمرأة، (حميدة) التى كانت أكثر من فهيمة جمالا ومالا، بل وأذكى منها قلباً، وأحسن منها مستقبلا، قبلت الزواج من أديب، ومنحته ودها وحبها، رغم أنها كانت أمية، لا تقرأ ولا تكتب، ومن ثم لم تكن تشاركه اهتماماته.. فهو يكتب إليها خطاباً، يحاول فيه أن يفهمها.. لماذا فعل ما فعل، ويبلغها ما يحمله لها فى نفسه من حب وتقدير لكنه يعى الوضع الذى هو فيه معها، فيتساءل.. أترين.. أنك فهمت عنى؟ ما أظن ومتى فهم العقلاء عن المجانين؟ أترين أنك صدقتنى؟ ما أظن.. ومتى صدق الناس مثل هذا الهزيان؟ بالحزن... ويا للمأسى، لمن أكتب هذا الكتاب؟ وإلى من أسوق هذا الحديث؟

إنك أن قرأته، فلن تفهميه.. وإن فهمته فلن تقبليه، فكيف وأنت لن تقرئيه؟

أنى لغافل.. ذاهل.. وأنى لوله مجنون.. لقد نسيت أنك لا تقرئين ولا تكتبين، فمن الذى سيقرأ عليك هذا الكتاب، ويفسره لك من أهل الريف؟ كلا لن أتمه ولن أرسله إليك..

لذلك اختار أديب أن يطلقها.. وهو بهذا اختار الظلم على الكذب.

ثم يتعرف على (فرنند) فى فرنسا وتصير له صديقة رقيقة، ثم يلتقى بإلين... حيث أسلم نفسه.. لا يعوقه شئ... ولا يسأل عن شئ فقد غلبته اللذة واللهو... قبل أسبوعين من امتحان اللاتينية، فقضى شهوراً فى الاستعداد لهذا الامتحان، ثم نجده يقضى أسبوعين بصحبة (إلين) فى الغابات حتى إذا دخل حجرة الامتحانات وأمسك ورقته، نسى كل شئ.. ولم يخط فى ورقة إجابته حرفاً... فعلاقته بالفتاتين (فرنند وإلين) لا اعتدال فيها ولا روية، وهذا التطرف جزء من تكوينه الذاتى المهوس،المضطرب، وهو التناقض الأساسى الذى التقت فيه مكوناته الذاتية بمكوناته الحضارية، التى تربى عليها وعاش فى كنفها حياته، والتى اصطدم بها بالحضارة الغربية.

فهل أراد (طه حسين) أن يتخذ من حميدة رمزاً لمصر.. الوطن الأم..

كل الأحداث المصاحبة والتالية تؤدى إلى هذا التفسير، فعلاقة أديب بمجتمعه.. وطنه أشبه بعلاقته بحميدة، وكما تخلى عنها بالطلاق وعاش ما عاش يقاسى الندم والعذاب، تخلى عن الحضارة التى ينتمى إليها، والبلد الذى رعاه حتى بلغ أشده،

فإذن هو يتنكر له ويعلنها صريحة، أن لا سبيل إلى العودة أيها الصديق..

لكن حميدة ومصر لم تخرجا من نفسه أبداً، نفسه التى انكشفت حين غاب العقل، فقال لصديقه.. أليست مصر أولى بى؟! أولست أنا أولى بمصر؟! إن مصر حميدة، وإن فى فرنسا (إلين) وجوار حميدة على بغضها لى أهون على من جوار (إلين)، فإن حميدة لم تؤلب على، لم تتنكر لى، وإنما تلقت إساءتى إليها بالصبر والعفو.

إنه الشعور المستكين داخل النفس بأمومة الأم، وحب الزوجة وفضل صاحبة الفضل، ومالاقى به هذا كله من الجحود والنكران، ولكن وعيه به لم يأت إلا وقد انتهى كل شئ، أو أقل أنه قادم الوعى به حتى جن.

ويضع أديب فى مقابل حميدة (إلين) الفتاة الفرنسية التى يحدثنا عنها، لكنه لا يصفها... ولا يصف من أحوالها إلا ما يعطى صورة فتاة غربية عادية، لا ميزة فيها إلا أنها فهمته، فاستجابت لهواه إذا أقبل على العلم تركته، كان لم تتصل به أبداً، إن أقبل على اللهو رعته كان لم تتصل بأحد غيره أبداً، وهى تلفت نظره حين يجور اللهو على الجد ووقته، فلا يستجيب لها وكأنها هى نفسها، لا تيسر له أسباب هذا اللهو والضياع.

ولما ربط حميدة بمصر، ربط إلين بفرنسا وبالحضارة الغربية كلها، وربط بين خيانة (إلين) له وخيانة الحلفاء وائتمارهم به.. يقول :

إلين من غير شك هى التى أفسدت على قلوب الحلفاء، وصورتنى لهم فى صورة العدو المخيف، وهى التى زينت لهم نفيي إلى المغرب الأقصى.

يا لغيرة النساء، ويا لكيد النساء، ويا لضعف الرجال، ويا لسذاجة الرجال، وإن كانوا أساتذة فى السوربون، أو ساسة محنكين قد تكون كل من حميدة وإلين رمزاً على حضارتها، فقد استخدم ذلك بذكاء شديد أو تكونان خطين متوازيين، على المستوى الخاص.. فالعلاقة بين (أديب) والمجتمعين اللذين احتك بهما فى وطنه ثم فرنسا، وحتى بهذا التفسير الأخير، فقد استخدم "طه حسين" صورتا.. علاقة أديب لهما، استخداماً ما جعل من هاتين العلاقتين لا مجرد علاقتى رجل بامرأتين، بل علاقتى رجل بحضارتين أو نمطين، حضارتين متباينيتن، وهو، فيما نظن، ما كان يرمى إليه "طه حسين" على المستويين أو فيهما معاً.

وفى الختام :

أظن أن أدب "طه حسين" وكأنه لوحة ضخمة من الفسيفساء، وغالباً ما تتشابك هذه اللوحات من عدة ألوان رئيسية غالبة، ثم تأتى الوحدات التى تشكلها بأطياف الألوان الرئيسية، بعض هذه الوحدات الزخرفية صغيرة للغاية، ولكن لا يمكن إهمالها، ومن هذه الوحدات أمه التى كان لها دور كبير فى تركيبة النفس، معها فى نفس اللوحة كوابس وخزامها فى أنفها يغزه حين تقبله، أخته الصغرى وموتها، نفيسة، فتاة الكتاب، سوزان الزوجة، أمينة الابنة.

وهكذا تتدرج أطياف أثر المرأة على أدب طه حسين، على الرغم من صغر دورها أو عظم هذا الدور.

ولابد أن أشير أيضاً، إلى أن د.طه حسين يعد رمزاً بطولياً للثقافة المصرية والعربية، لأنه الرجل الذى تصدى للشر ونذر حياته لاستئصال جذور الخرافة، فقد كان يعلم أن التخلف والجهل والتعصب والاستبداد رؤوس ثابتة بين كتفى شيطان واحد، ،وأنه إذا قطع رأساً، سينبت مكانه غيره، لأن الأصل قائم

والجذور ممتدة، وأنه لن ينتصر على آفة واحدة من هذه الآفات، إلا إذا أهوى عليها جميعاً بضربة تطيح بالرأس كله.

إن سيرة (طه حسين) رائدة فى معركة لم تنته حتى الآن، بل اشتد أوراها بعد أن رحل بجسده، وأصبح عقلا خالصاً، يضيئ بالتنوير والمعرفة.

المراجع :

١) الأصالة والمعاصرة ، فى فكر طه حسين، لويس يعقوب.

٢) طه حسين (الأيام) ،الجزء الثالث.

٣) جنون امرأة (مى زيادة) ، خالد محمد غازى.

٤) أيام طه حسين، فـؤاد دوارة.

٥) مجلة إبداع، تجديد ذكرى طه حسين، نوفمبر١٩٩٣.

٦) الرحلة إلى الغرب فى الرواية العربية الحديثة ،د. عـصام بهى.


٧) صوت المرأة فى الرواية المعاصرة ،د. طه حسين.

٨) الأعمال الروائية لطه حسين ، (الحب الضائع، دعاء الكروان، المعذبون فى الارض، أديب، شجرة البؤس)

* تحت الطبع للمؤلفة :

- اعترافات امرأة
- مجموعة قصص للأطفال نشر معظمها فى المجلات قطر الندى، التلال للاولاد والبنات.
- الشجرة والثعبان – مجموعة قصص ، نشر معظمها فى المجلات والدوريات الثقافية منها :–
  مجلة حواء، جريدة عمان (الملحق الثقافى).
- المرأة فى حياة طه وفكر طه حسين – دراسة حصلت بها على جائزة إدارة بحوث المرأة بالهيئة العامة لقصور الثقافة.
- بيت الأب الكئيب – رواية عن أولاد الشوارع.

المحتوى



www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com
لغلاف: رضوى عبد المنعم